يوسف القعيد

الحرب في برّ مصر

رواية

Bibliotheca Alexandrina
0120090

مكتبة مدبولي
القاهرة

الحرب في برّ مصر

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مدبولي
الطبعة الخامسة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

١ - الطبعة الأولى : دار بن رشد - بيروت مارس ١٩٧٨ .
٢ - الطبعة الثانية : دار صلاح الدين . القدس - فلسطين المحتلة - نيسان ١٩٧٩ .
٣ - الطبعة الثالثة : دار القاهرة . ١٩٨٥ .
٤ - الطبعة الرابعة : دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - ١٩٨٦ .

الترجمات :
١ - الروسية - موسكو .
٢ - الاوكرانية - أوكراينيا .
٣ - الأنجليزية - لندن - دار الساقي .
٤ - العبرية - فلسطين المحتلة .
٥ - الفرنسية - دار لاتيس - باريس .

الناشر
مكتبة مدبولي
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٧٥٦٤٢١

الحرب في برّ مصر

رواية

يوسف القعيد

مكتبة مدبولي
القاهرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وفي مصر شاهدت أشياء كثيرة
ولكنني لم أنطق

هيرودوت

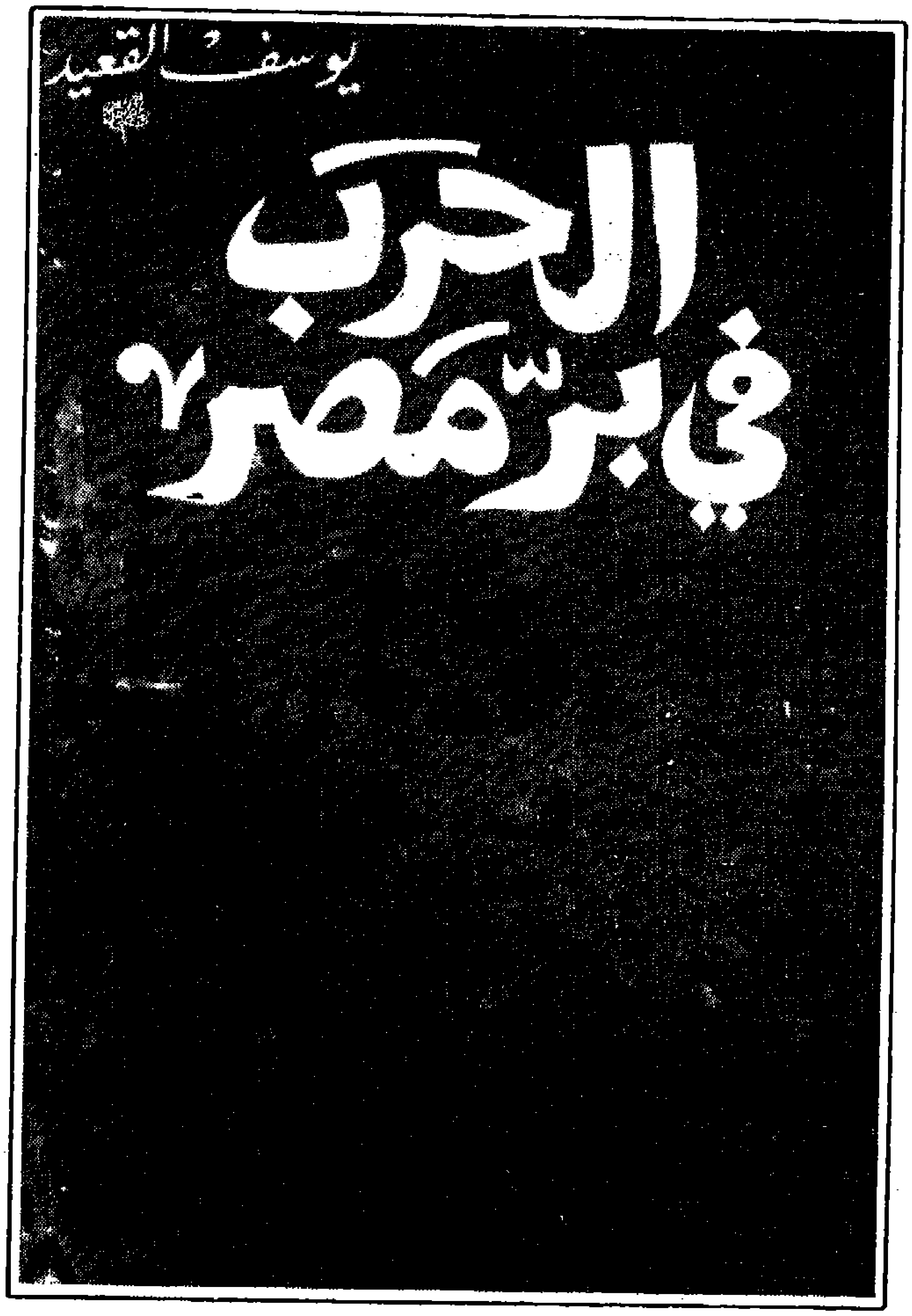
يوسف القعيد
الحرب في بر مصر

العُمْدة

لا أعـرف بالتحـديد من أين أبـدأ الحكايـة . كنت أتصـور أن ليلة الأمس من الليالي التاريخية في حياة العائلة . نمت وهذا الإحساس يسكر نفسي ، ولكن ما حدث اليوم فرض على حيرة غريبة ، أيهما التاريخي : الأمس أم اليوم ؟ لا أدري . أمس كان يوماً عظيماً . أول يوم يدخل قلبي الفرح وتلمس نفسي السعادة منـذ سنوات مضت . كـرامتنا عـادت إلينا . الأرض التي أخـذوها منـا سنـة أربـع وخمسين رجعت . الأمس يـوم من الصعب وصفه . ولأن سعادتي بعودة الأرض ما بعـدها سعـادة أخرى في العـالم كله ، تمنيت أن أمـوت سـاعتهـا . في اللحـظة التي علمت فيهـا بصدور حكم القضاء العادل بعودة أرضنا إلينا ، نظرت إلى الناحية القبلية ، لا بد وأن قالب الطوب الأحمر الموضوع تحت رأس والدي قد ذاب الآن . قال لي قبل وفاته ، أنه لن يستريح وأرضنا مع الغرباء ، وأن هذا القـالب سيـظل قطعـة صلبة تسلبـه راحة النـوم الأبدي لن يـذوب إلا بعد الفـرح الحقيقي . رجعت الأرض كلهـا ، وانـطلقت البنـادق والـزغـاريـد ، ولم تسكت أصوات الفرح إلا بعـد منتصف الليل ، وفي آخـر الليل كنت قـد تعبت من كثرة الفرح ، وأحسست أن عظام صدري تشكو من خبطات قلبي عليهـا . لحـظة النـوم ، حـذرتهم في البيت من إيقـاظي في الصبـاح . ليتركوني أشبـع من النوم لأول مـرة منذ أكثـر من عشرين عـاماً . لم يكن

عندي عمل في الغد . فلأستمتع إذن بكل ما كانت تمنحه لنا الحياة القديمة من كسل لذيذ وراحة حلوة . كل هذا حدث بالأمس . إن الزمن يجري بسرعة غريبة . ساعة الفجر وقبل أن تنطلق الديوك في منزلنا بصياح كل يوم .أمسكت في صدري سعلة ، لم تتركني إلا بعد أن أفرغت بطني من كل ما فيها . لم يعرف النوم طريقه إلى عيني بعد هذا . ومن عادتي في الفترة الأخيرة أن أقضي الليالي كلها في حجرة زوجتي الأخيرة . وقد يقول البعض أنها المرأة الجديدة ، وكل جديد وله طعمه الخاص . هذا غير صحيح ، زوجتي الأخيرة ليست جديدة ، لي معها سنوات ليست قليلة ، ولكن سر تمسكي بالمبيت عندها أني أستريح لها ، أحب حجرتها أكثر من غيرها . بعد السعال هجم عليَّ صداع ، فأس تضرب في عظمة الرأس وطاسة المخ . قلت ، يبدو أني لن أنام مرة أخرى ، قمت ، فتحت النافذة ، قليل من هواء الليل الطري وأستريح من الصداع والسعال . رأيت صفحة السماء ، هادئة ساكنة . كانت هناك نجمتان نسيهما الليل مكانهما . وبحري البلد ، رأيت النجمة أم ذيل وبجوارها عصاتين متعانقتين ، وكان النور الذي هل على النافذة أزرق اللون ، مشوباً برمادية ساعة الفجر الموحشة . لم يكن عندي ما أعمله إلى أن تطلع الشمس ويأتي موعد نزولي إلى الدوار . ناديت الخادمة ، حضرت . طلبت منها إحضار بعض الماء لأغسل وجهي وأتوضأ ، أحضرت الأبريق والطشت النحاسي . صبت الماء على يدي . نزلت من الأبريق قطعة طين صغيرة ، رأيتها في كفي . لم أزعق أو أصرخ . سكت . قدمت لي زوجتي الشاي . أخذت الكوب المذهب ، قربته من فمي ، لمس زجاجه بين شفتي ، سرح الشاي على لساني ، كان مراً ، بسرعة أرجعته من فمي على الطبلية . نسيت زوجتي أن تضع السكر . قلت لنفسي : اللهم أجعله خيراً . خفت ، وكان سبب خوفي أن أفراح الأمس جعلت الدنيا لا تسعني ، كسرت عين أولاد الكلب . رجعت الأرض وغداً يعود لنا كل ما

فقدناه . غير أن الدنيا عندما تقبل علي وتسلمني نفسها ، أخاف منها كثيراً .

أثناء صلاة الفجر أوشكت أن أخطىء في تلاوة الفاتحة والتحيات . كان من الصعب عليّ أن أركز في أمر من الأمور . ولكن عندما رفت عيني الشمال ، تأكد لي أنه لا بد من حدوث أمر ما . انتهيت من الصلاة وسلمت . سألت زوجتي عن اليوم . عرفت أنه ليس يوم جمعة . استرحت قليلاً ، فمن المعروف أن يوم الجمعة به ساعة نحس . أحضرت زوجتي صينية الإفطار . رفعت الفوطة ومن تحتها طلع عليَّ البخار الأبيض من كوب الحليب وطبق البيض المقلي . نظرت في الطعام . دارت عيني على البيض والفول والجبن وعيدان الجرجير الخضراء . لم أكن راغباً في تناول الطعام . مددت يدي . قسمت أول رغيف إلى نصفين . قطعت من أحد النصفين لقمة غمستها ، قربتها من فمي ، حشرتها بين أسناني ، وبصعوبة قطعتها ، ولم آكل سواها ، غسلت يدي . شربت أكثر من كوب شاي . قلت لزوجتي :

ـ الحمد لله .

تحركت رموش عينيها حركة غير طبيعية . وتغيرت ملامح وجهها .

ـ هل في الأكل شيء ؟

ـ لا

قلت لها أنه لا توجد لدي رغبة في الأكل . لأنني لم أنم جيداً بسبب فرحتنا كلنا . ولكن الكلام لم يدخل رأسها . قالت لي أنني من ساعة الفجرية وحالتي لا تعجبها . قمت. اتجهت إلى دولاب حجرة النوم لكي أرتدي ملابس الخروج .أقتربت مني ، لمس صدرها الممتلىء عظام ظهري . سبب ذلك لي ضيقاً . كان صدرها متماسكاً . كلما ضغطت على ظهري إزداد ضيقي . التصقت بي أكثر . أصبحت أشعر بتضاريس الصدر

ومنبت الثديين . تذكرت بلوتي وسكت . مدت يدها ، تساءلت : هل أخرج بدون إفطار ؟ تهت ، لم أرد عليها ، خرجت ، تركت الشقة التي بنيتها من أجلها . فتحت الباب ، ودخلت البيت القديم . الحجرات كلها مغلقة ورائحة النوم تملأ الصالة . مررت على حجرة زوجتي الأولى ، والتي يسمونها في البيت بالست الكبيرة. وهي أم أولادي الكبار . أمامها حجرة زوجتي الثانية ، ثم حجرات الأولاد . أتجهت إلى الحظيرة ، البهائم نائمة تجتر أكل الليلة السابقة . الفك يتحرك ببطء وكسل ، ولكن العين مغمضة ، شبه نائمة . والمزاود أمامها خالية ، تلمع قيعانها بعد أن نظفت البهائم بألسنتها كل ما فيها . كان الكلب يقظاً . بمجرد أن وضعت قدمي في الحظيرة جرى عليّ . عرفني ، هز ذيله ، وحك نفسه في رجلي ، تممت على البهائم ، ألقيت نظرة على المخازن : مخزن المحاصيل ، مخزن الأسمدة ، مخزن المبيدات ، مخزن الآلات الزراعية . كلها مغلقة كما هي . ذهبت إلى الدوار . الوقت مبكر . لم يدهش أحد من نشاطي الغريب ، فسره البعض بأنه نتيجة لعودة الأرض . قالوا إن الحياة نفسها عادت إلى وليست الأرض فقط . جلست أدخن ، سيجارة من سيجارة ، حضر الخفراء ، سلموا السلاح ، وجبخانات الذخيرة . بعد التسليم حضر إليَّ الخفير النوبتجي ، يقدم قدماً ويؤخر الأخرى ، يبدو خائفاً . أعطاني دفتر الأحوال ، وبه الإشارات التي وردت إلى الدوار في الليل . نظرت فيه بغضب ، عندما قدم لي الإشارات بمفردها . طلبت منه قراءة الإشارات لي كعادته كل يوم ، أصابت يده رعشة ، تراقصت بعض الكلمات على شفتيه . خطفت منه الإشارات . الإشارة الأولى كانت سبب خوفه . ابني الصغير مطلوب للتجنيد . اتضحت الحكاية الآن . اليوم من لحظة بدئه أما أن يكون في بياض الحليب أو في سواد هباب الفرن . استرحت في جلستي ، تركت ظهري يتراجع حتى استراح على المسند . طلبت بصوت سمعه الكل الرحمة

لوالدي ، كان يخاف دوماً من الخير . لن أنسى كلماته أبداً . إذا وجدت الدنيا مقبلة عليك ، وفي يدها اليمنى نعمة كبرى . لا بد وأن تكون يدها اليسرى خالية . هل تعرف لماذا ؟ لأنها تأخذ باليد اليسرى ما أعطته باليد اليمنى . الآن عرفت أن والدي كان يعرف أشياء كثيرة لا أعرفها . الخفير يقف أمامي والإشارة في يدي . لا أخفي عليكم لم أعرف كيف أتصرف . ترحمت على أيام الزمان الماضي . والدي كان يقدر على عمل المستحيلات . وأنا أيضاً في أيامي الأولى . في الرأس مبادىء صداع . أصبح الفكر بحوراً بعضها يطير بي إلى حافة الأفق البعيدة ، والبعض يعيدني لجلستي على المصطبة في الدوار . صرفت الخفير . ظلت الإشارة معي . انسدت الدنيا في وجهي . عندما كان والدي يواجه موقفاً مثل هذا ، كان يضحك وعيناه اللتان في خضرة الحقول وقت الربيع تلمعان . كان يبتسم ويقول أن طريق أبو زيد كله مسالك . في موقفي هذا ، لم يعد أمامي ولا مسلك واحد . حضر كاتب حجرة التليفون ، فوجىء بوجودي في هذا الوقت المبكر وبجلستي التائهة وسط سحب الدخان ، نظر في وجهي ، استعاذ بالله ، وسألني عن الأمر . لم يكن لدي رغبة في الرد عليه ، أكثر من واحد شرح له الحكاية .

أشاروا للورقة التي أمسكها بين يدي ، نظرت إليه . غضبت لأنه ضحك . قال أن الأمر بسيط ولا يستوجب هذا التفكير . اقترب مني ، قال كلمة واحدة : المتعهد ، لم أفهم ماذا يعنيه . أكمل أن المتعهد عنده الحل لكل المشاكل ، مهما كانت صعوبتها . تذكرت الرجل الذي تقول عنه الناس في الناحية كلها : المتعهد . لدرجة أنهم نسوا اسمه الأصلي . وهو متعهد أي شيء ، ويستطيع فعل كل ما تطلبه منه . وهو في الأصل مدرس ابتدائي ، ألقى القبض عليه في قضية رشوة أو تزوير ، لا أذكر ، وقدم لمحكمة البندر ، ولأن حبال الحكومة طويلة ، والمحاكم يومها بسنة ، ظلت قضيته منظورة أمام محكمة البندر ومحكمة المديرية

والمحكمة العليا في مصر عدداً من السنين . وأخيراً صدر الحكم ضده ، أستأنف ورفضوا استئنافه وتأيد الحكم ضده . فصل من عمله وزالت عنه صفة المدرس وبقيت له صفة المتعهد . تركتكم في الكلام . الغريب أن الشخص عندما يحكي حكاية تصبح الكلمات مثل حبات المسبحة في يد أمام المسجد ، كل حبة تشد الحبة التي وراءها ، وهكذا يصبح من الصعب التوقف عند نقطة أو العودة لتوضيح موقف . في اللحظة التي كان الكاتب يحدثني فيها عن المتعهد وحل المشكلة ، كنت متردداً . من ناحية كنت أود أن يذهب ابني إلى العسكرية لكي يتعلم . إلى متى يظل مدللاً ؟ من المؤكد أنني لن أعيش له في قمقم حتى آخر أيام العمر . في يوم ما ، سيجد نفسه وحيداً . ومن ناحية أخرى كان من الصعب عليَّ قبول فكرة ذهابه بعيداً عن عيني يوماً واحداً . كان آخر العنقود . بعد أن رزقت به ، مرضت ، سافرت إلى البنادر ، كشف عليَّ الحكماء وأعطوني أدوية لم تقدم لي الشفاء . زادت عليَّ العلة . أدركت يومها أن أسوأ ما يصيب الإنسان في حياته هو المرض . صحة الإنسان تساوي كل ما في خزائن قارون نفسه . في النهاية أجري لي الحكماء عملية استئصال البروسطاطا. قبلها ، قالوا لي أن هذا هو العلاج الوحيد ولا يوجد حل آخر . كتبوا لي إقراراً بأنني أوافق على إجراء العملية ، وافقت . وأنا أمسك بالقلم لكي أكتب اسمي في ذيل الإقرار قلت لنفسي ، أن السر لا بد وأن يدفن في بئر عميق ، ويردم عليه . لا يقال السر لأي إنسان . استئصال البروسطاطا يعني بالنسبة لي فقدان رجولتي . ولو علم الناس في البلد ، من الجائز أن يقولوا أني لم أعد أصلح عمدة للبلد ، وأن العمدة لا بد وأن يكون رجلاً كاملاً . هونت الأمر على نفسي . قلت أن الأولاد في البيت مثل عدد حبات الأرز . ولكني بعد عودتي إلى المنزل ، حزنت على نفسي وإزداد حبي لأصغر أبنائي . قال الناس في البلد أن سبب هذا الحب ، أنه ابن الزوجة الأخيرة ، الفتاة التي في سن أولادي . لكن أحداً لم يعرف

السبب الحقيقي أبداً . وأنا في طريق العودة ، احترت طويلاً ، عند أي زوجاتي الثلاث أقيم . استعرضت علاقتي بهن في الفترة الأخيرة ، زوجتي الأولى لا تطيق وجودي ، الزوجة الثانية أصابها جرح بسبب زواجي بعدها ، لم يبق سوى الثالثة . هونت الأمر . قلت إن السر عندما تعرفه واحدة خير من إذاعته بين ثلاث . تغيرت حالتي ، قلت ساعات نومي ، أصبحت أصحوا أكثر من مرة بالليل ، الحرمان من نعمة النوم جعل الليل يبدوا في نظري كابوساً . نقلت الراديو إلى جوار سرير . كنت أغضب عندما تنهي المحطات إرسالها ، وباقي أكثر من نصف الليل ، على أن أقضيه بمفردي . ترحمت على أيام مضت ، كان الليل بطوله لا يكفي لكي أنام فيه . ومع مرور الزمن ، إزداد خوفي من زوجتي الأخيرة ، من شبابها ونضارتها وصغر سنها . ولكن لم يكن مبرراً للبعد عنها . إذ كيف أتركها بمفردها في حجرة واسعة . استعنت بالله ، وكنت أقضي العذاب الذي اسمه الليل ، في حجرتها . كنت أسأل نفسي : لماذا يتعذب الناس بهذه الصورة ؟ لماذا لا يموت الإنسان فجأة بدلاً من هذا الموت البطيء ؟ أعود لحكاية ابني . لم أكن أقدر على البعد عنه لحظة واحدة . ها أنذا أكرر العبارة نفسها التي كتبتها من قبل . هناك سبب آخر كان يدفعني إلى التمسك به ، وهو أن أخوته كلهم لم يذهبوا إلى العسكرية . ابني البكر أعفي من الجهادية بموجب قانون أولاد العمد . أما الذي يليه ، وهو الذي نسميه في ريف مصر الذي فوق رأسه ، فأعفي لأنه حفظ القرآن الكريم ، وأصبح حاملاً لكلام ربه في صدره وسمي فقيهاً . والثالث دفعت له البدلية عشرين جنيهاً ، كل جنيه ينطح الآخر في رأسه . وكان الجنيه أيامها مبلغاً له قيمته العظيمة ، قد تساوي عشرين من جنيهات هذه الأيام التي قل خيرها ، وضاعت بركتها . ابني الرابع ، كانت أمه أحلى نساء البلد . آه ، إن الزمان الجميل ذهب ، وراحت معه أشياء كثيرة جميلة . هل يعود مرة أخرى ؟ أعتقد ، خاصة وأن بشائره هلت علينا هذه الأيام . وابني الرابع

طلقت أمه ، طلاق سري على الورق ليس غير . وبعد وقوع الطلاق، أصبح هو العائل الوحيد لأمه المطلقة . وهنا لا بد من التوقف أمام نقطة هامة . لكي نستمر معاً بوضوح . أنا لا أخجل من نفسي وأنا أحكي هذا الكلام . ولكي تقدر شعوري بالضبط . هناك أمور لا بد أن نعرفها ونتكلم عنها من الآن . قد تغضب مني ، وقد تتساءل ، ألا يشعر هذا المصري بالخجل والعار وهو يهرب أولاده من دفع ضريبة الدفاع عن الوطن ؟ ويتفنن في تهريبهم من التجنيد ، لدرجة أن عمليات تهريبهم تعكس تطور قوانين التجنيد في الفترة الأخيرة ؟ ولك أن تكمل : ألسنا أبناء مصر ؟ إنها بلدنا ، ولا بد وأن ندافع عنها بالدم والروح . وأنا عمدة ، أي أنني المسؤول عن تجنيد كل أولاد الناس ، فكيف أهرب أولادي ؟ وماذا يقول أهل البلد عندما يشاهدون هذا بأنفسهم ؟ أنا أتصور موقفك وأعرف أنك قد تصل في بند التساؤلات إلى سؤال حاسم يقول : إن تهريب أولادي تم في فترة خاضت فيها مصر ثلاث حروب مصيرية وهامة . وإزاء كل هذه التساؤلات يصيبني اليأس من جدوى فهمك لي . لا أعرف هل ستكون لديك القدرة على الإحاطة بموقفي أم لا ؟ ورغم كل هذا . فإني أقول أنني وطني أحب بر مصر ، وعبادة وادي النيل تجري في دمي . وهذه العبادة ورثتها أباً عن جد ، وهذا الحب عميق ، بعيد الغور في التاريخ ، وأكثر أصالة من كلام أولاد هذه الأيام ، الذين يحبون مصر بالخطب والكلمات . إن جد والدي كان واحداً من العساكر المجهولين الذين وقفوا بجوار أحمد باشا عرابي ، يدافعون عن شرف مصر . وهذا أكبر دليل على الوطنية الصادقة ، وحتى استشهاد أحد جذور عائلتنا في هوجة عرابي لا أقوله لأحد ، إنه سري الخاص ، هذه أول مرة أذكر فيها . لا بد وأن تعرف أنني الآن عمدة . كان والدي يقول : إنه لو ذهب أحد منا إلى الجهادية لأهتزت شجرة العائلة وتقوست واقتربت من الأرض ، ولما كان عمر هذه الشجرة يعود إلى زمن المماليك والأتراك في مصر ، فلا يصبح من حقي العبث به . أنا شخصياً

كان يسعدني ذهاب أولادي إلى العسكرية ، وهذا شرف في حد ذاته . الخطأ الأول كان في إعفاء الإبن الكبر ، وتبعته الحكاية . وكل واحد كان يقارن نفسه بأخيه السابق . وعندما حاولت المناقشة كان الرد يأتي في حدة السيف : إن أحداً لم يذهب إلى العسكرية من قبل ، كنت أرد : الدنيا تغيرت وهذا يفرض علينا التغيير . كان بودي أن يذهب الإبن الصغير إلى الجهادية . ولكني ماذا لو قارنت أمه نفسها بالزوجتين السابقتين وطالبت بالمساواة بهما ؟ وماذا لو وقفت في مواجهتي وقالت : ألا يكفيني أنني أتحملك بعيوبك ؟ هي الوحيدة التي تعرف السر ، منذ عودتي لم أنم سوى في سريرها ، لأنها أجدع زوجاتي الثلاث . في هذه الحالة فإن ذهاب ابنها إلى التجنيد قد يؤدي إلى إنكشاف سري ، ليس في منزلي وحده ، ولكن في البلد كلها . كيف نتصور نفسية أم يذهب وحيدها إلى النار ؟ إن العسكرية في هذه الأيام مختلفة عن أيامنا ، الجيش مشترك في حرب وضرب وقتال ولا يعرف إلا الله متى ينتهي ، وهذا ما يدفعني إلى ضرورة بل وحتمية التصرف . من يرمي ابنه للقتل ؟ لا بد من المتعهد إذن . هناك أمر آخر ، إن زوجتي الأخيرة منذ سنوات وهي تشتاق إلى أخ لابنها . لا أعرف الآن ما هو السبب في عدم حملها ، في الريف تصبح هذه الأمور من الأسرار النسائية التي لا نتكلم فيها نحن الرجال . ولكنني بعد العملية واخبارها بكت ، قالت ليتني كنت أعرف لأنجي ابني من مرارة الوحدة طول عمره . هونت عليها ، قلت لها • إن له جيشاً من الأخوة ، فقالت ببساطة إنهم غير أشقاء . وهكذا وجدت نفسي وسط هذه الدوامة ، وقد أصبحت متأكداً من أمر واحد ، وهو أن ابني الصغير لن يبتعد عني مهما حدث . أتخذت قراري بالذهاب إلى المتعهد . استراحت نفسي . شعرت أنني وصلت إلى بر الأمان . سأعطيه مهما طلب ، وسأكون معه بمعارفي وأصدقائي وعلاقاتي وأهم من كل هذا ، بأموالي . نحن في أيام شعارها معروف : معك قرش إذن تساوي قرشاً . وأنا ، والحمد لله ، معي

ملايين القروش . وما دام القرش أصبح رب هذه الأيام ، فلن أخاف أبداً من أية احتمالات . وقريباً سيجرون عمليات جراحية للناس في بلدي ، يستأصلون فيها القلوب ، ويعلقون مكانها جنيهات ذهبية تخفق بدلاً من القلوب وتدفع بالقروش الذهبية بدلاً من كرات الدم الحمراء والبيضاء . وعندما يحدث هذا ستعود إلينا الهيبة والجاه ونصبح ملوك مصر من جديد . استرحت ، قمت ، دخلت البيت . كان ابني الأخير ما يزال نائماً . نظرت إليه ، فار الدم في عروقي ، إنه ينام حتى أذان الظهر . قلت في نفسي : والله لم يكن يصلح حاله غير الذهاب إلى الجبهة . ولكن ماذا يفعل الإنسان للظروف ؟ طلبت من زوجتي أن تعد ملابس السفر ، فأنا في البلد أرتدي جلباباً مثل كل الناس وإن كان جلبابي من قماش مستورد نادر الوجود في الناحية كلها ، ولكني عندما أسافر ـ والسفر معناه ترك البلد إلى أي مكان آخر ـ أرتدي البدلة وأضع على عيني نظارة بيرسول آخر موديل ، وأعطر جسمي بكولونيا ، وأصبح أكثر أناقة من أي أفندي مهما كان منصبه ومهما ارتفع مرتبه . قلت لزوجتي أني ذاهب إلى المركز ، لا أحد في منزلي يسألني عن تحركاتي سوى زوجتي الأخيرة ، وهذا امتياز أنا الذي منحتها أياه . لم تسألني عن سبب الذهاب إلى المركز . فكرت أن أقول لها ، لكي أبدو في نظرها بمظهر الرجال الخطيرين ، القادرين على عمل المستحيلات . خفت أن تنتقل الكلمات من فم لآخر بعد أن يكون قد أضاف لها تفصيلات وزيادات من عنده . علمني والدي أن الحاجة إن خرجت من بين اثنين يصبح من الصعب قضاؤها . ونحن الأكابر أولاد الناس ، الكل يحسدنا ، ولهذا لا بد من السرية . عموماً سيأتي يوم تعرف فيه كل ما فعلته وهذا يجعلني في نظرها أضخم من الجبل وأقوى من الأسد . طلبت سيارة مخصوصة ، وقفت أمام الدار أنتظرها . حضرت السيارة بعد قليل ، ركبت ، حضر معي كاتب حجرة التليفون . جلست على الكنبة الخلفية ، والكاتب أغلق باب السيارة وركب على المقعد

الأمامي بجوار السائق . نظر الكاتب في وجهي في المرآة ، كنت عابساً ، ضحك لوجهي في المرآة . طوال الطريق وهو يحاول أن يسري عني ، ويقول إن المسألة بسيطة . لم أفكر في الرد ، ظللت صامتاً. في الطريق ، لم أكن سعيداً أو حزيناً . رآني كثيرون من أهل البلد ، أشاروا للسيارة ، أوقفوها ، سلموا عليّ ، واحد منهم قال أنني مسافر إلى مصر لأشكر الكبار في الحكومة على رجوع أرضي إليّ ، سكت ، لم أنف كلامه ولم أؤكده . قلت إن هذا أحسن ، وهو يصرف الخلق عن محاولة معرفة السبب الحقيقي لسفري . في الطريق مرت السيارة على بعض أجزاء من الأرض التي عادت إليّ ، ذكرتني بكل أحداث الأمس . رجعت بذهني إلى والدي . قبل أن يموت قال لي : إن حقنا لا بد وأن يعود إلينا ذات يوم . قلت له : الغيب علمه عند الله وحده . الحكاية مرة ، وما دامت المرارة قد ذهبت مع أيامها التي لن تعود ، لابأس من حكايتها هنا ، على سبيل التسلية . بعد حركة الجيش بحوالي عامين ، وزع والدي أرضه علينا ، أنا وأخوتي الصبيان والبنات . ولكن كانت هناك قطعة من الأرض ، اشتريناها حديثاً وما زالت الإجراءات الخاصة بتسجيلها متعثرة في طريقها الطويل ، لهذا لم توزع هذه المساحة علينا .

ذات صباح حضرت إلينا لجان من حركة الجيش ، معهم ضابط قيل أنه مندوب القيادة . قالوا لنا : إن الأوراق الموجودة معهم تؤكد أن والدنا أصله تركي ، وإن إجراءات حصوله على الجنسية المصرية غير قانونية ، لهذا سيأخذون قطعة الأرض الجاري تسجيلها باسمه حالياً . أما نحن ، فلأن أمنا مصرية وهي من أبوين مصريين وولدنا في مصر ، فلن يأخذوا ما معنا من الأرض ، سيكتفون بتطبيق قانون الإصلاح الزراعي علينا ، ومن توجد لديه مساحات زائدة من الأرض فسيأخذونها . ولم يتم الإستيلاء على أرض أخواتي البنات ، وأخوتي الصبية لم يطبق عليهم القانون . اختلف الأمر معي ، الأرض المسجلة بإسمي كانت كثيرة لأن والدي اختصني

بمساحات أكبر من الأخوة الآخرين ، وزوجتي الأولى كانت تملك مساحة من الأرض ، نقلتها بإسمي بعد الزواج وأصبحت مملوكة لي رسمياً . كل الأرض الزائدة أخذوها مني . أصبحت لا أمتلك سوى مائتي فدان فقط . يوم نزع ملكية الأرض منا ، لم يتحمل والدي الموقف . أصيب بشلل ، شل نصفه الأيمن كله . لم يقدر على تحريك يده اليمنى أو قدمه اليمنى ، حتى فمه لم يقدر على تحريك سوى نصفه . كانت أياماً عصبية . الناس الذين كانوا يكملون عشاءهم نوماً حمروا لنا أعينهم . منذ أيام قليلة ، لم يكن أحد من أهل البلد يجرؤ أن يمر على والدي وهو يركب حماره . ياه . وهل أتكلم عن الأيام التي شاهدت فيها أبي وهو يربط من يعصى أوامره إلى شجرة الكافور ، التي ما تزال في مكانها نفسه أمام الدوار . إن الزمن غول رهيب . اتى رجال الجيش وأخذوا الأرض ، وفي اليوم التالي بدأ الإجراء والعمال والتملية يغيرون معاملتهم لنا . تشفى الناس من مرض والدي بصوت عال ، أمامي أحياناً . أصبحت أنظر إلى الغد نظرة سوداء . كنت أخاف أن أموت قبل عودة أرضي إليّ ، لأن هذا كان معناه ببساطة أن يموت الإنسان وهو كافر بمعان كثيرة ، أهمها الإيمان أن الخير هو الذي ينتصر في عالمنا . لكن يبدو أن الله سبحانه وتعالى لم يحب أن أقابله ونفسي مدمرة بهذه الصورة . وعلى غير توقع أتى الفجر مفاجئاً . صفيت الحراسات . عادت لنا مساحة من أرضنا . رفعت قضية ، أثبت فيها أن الدم الذي يجري في عروق والدي مصري وأن عائلتنا لم تعرف الدم الأزرق أبداً ، وإن مؤسس عائلتنا الأول كان مشرفاً على بناء هرم خوفو الأكبر ، وهذا ثابت تاريخياً وعلمياً في بعض الحفريات التي اكتشفت في بداية هذا العام في أحد حقولنا . بالأمس صدر الحكم بعودة الأرض لنا . دهشت من سرعة إصدار الحكم ، فمن المعروف أن القضاء المصري بطيء . ولكن يبدو أن هناك تعليمات صادرة بالسرعة في إجراءات رفع الظلم عن المظلومين أمثالنا . عندما وصلني خبر الحكم قلت : ليس مهماً

ما رجع ولكن الأكثر أهمية هو ما سيعود في الأيام القادمة . عاد لي نشاطي القديم . ومن تحت ركام المظالم ، انبثقت نفسي القديمة . ها هي نشوة الزمان العظيم الذي مضى . يجب أن أستعد لترشيح نفسي في انتخابات البرلمان القادمة . ولا بد من كنس الأولاد أعضاء لجنة الإتحاد الإشتراكي العربي بضربة واحدة . حتى لو عرضوا علي الأمانة سأرفض هذا . أما أنا وأما هم . تكفيهم ستة عشر عاماً . مضت ، خلا لهم فيها الجو ، وخطبوا وصفقوا . من يدري ، قد يعين أحد أبنائي في منصب كبير . أيام أولاد الناس في الطريق إلينا . كان والدي يقول أن الخلق في بر مصر نوعان ، أولاد الناس وأولاد الكلاب . في الريف أولاد الناس من يمتلكون أكثر من مائة فدان للرأس الواحد أما كل من لا يمتلك أية مساحة من الأرض فهو من النوع الثاني من الخلق . وبين الحدين سلم ضخم يقف فيه صغار الملاك والعمال والإجراء والعاطلون . أنا أحكي كل هذا لكي تحاول معرفة إلى أي مدى كنت سعيداً ليلة الأمس . ولهذا ستصدقني عندما أقول أن عيني لم تغمضا لحظة واحدة طوال الليل . وفي ظل الوضع الجديد لن يذهب ابني إلى التجنيد . إن كنت قد عشت في مصر قبل أربع وخمسين ستفهم كلامي وتقدره وستجد لي ألف عذر . أما إذا كنت من الذين رضعوا كلام هذه الأيام الغريبة مع لبن أمهاتهم ، فلن تحاول أن تفهمني أو تعذرني . أملي في الأيام القادمة ، ستجعلك تدرك حكايتي . إن جيلنا سيء الحظ ، حركة الجيش لم تأخذ منا الأرض والجاه والسلطان فقط ، بالعكس ، هناك ست عشرة سنة سقطت من العمر ، كان من الممكن أن نفعل فيها الكثير لمصرنا العزيزية الغالية . الحمد لله وحده. زال الكابوس وأتى لنا الأمان . تلاشى الحقد وبقي لنا الحب . متى تنتهي هذه الحرب التي لم يكن هناك مبرر لها والسلام أجمل ألف مرة من الضرب والقتل ؟

وصلنا ايتاي البارود . الكاتب دل السائق على بيت المتعهد . أمام البيت نزل الكاتب لكي يرى أن كان المتعهد موجوداً أم لا . بقيت في

السيـارة. في الصباح اعتـرض الكاتب على حضـوري بنفسي. عرض عليَّ أن يحضر المتعهد إلى البلد . رفضت لأن زيارة المتعهد لي ستثير فضول الناس . الكل يعرف أن المتعهد لا يحضـر إلا لعمل أشيـاء خارجـة على القـانون . كمـا أن حضوره في أيـام الفرحـة العظيمـة برجـوع الأرض ، سيجعل أعداءنا يشكون في قـرار عودة الأرض إلينـا ، ويلقون ظـلالاً من الـرشوة والـوساطـة على القـرار . وهـذا قـد يسبب لي أو لأولادي بعص المتـاعب مستقبـلاً ، من يـدري ؟ أتى الكـاتب . قـال بصـوت عـالٍ : تفضل . نعتني بأوصاف الزمان الجميل الذي مضى . ألصق باسمي لقب البكـوية الـذي كنت قد نسيتـه ، نـزلت ، سـرت ببطء ، وصلت حجـرة الضيـوف بمنزل المتعهـد ، جلست أنتـظر ، وضـح لي الكـاتب الأمـر ، المتعهد كان نائماً، حسدته على راحة البال ، حضر المتعهد ، فاحت من وجهه رائحة نوم النهار ، عيناه منفتختان من كثرة النوم ، في خـده الأيمن خطوط حمراء بالعرض أكدت لي أنه كان نائماً فوق حصيرة وبدون وسادة ، أو أنه تحرك أثناء نومه ووقعت رأسه من فوق الوسادة ، وأنه لم يستيقظ ، نام على هذا الوضع وقتاً طويلاً . جلس أمامي ، رحب بي ، سألني عن الأحوال . قال لي أنه يلمح الضيق على وجهي ، حكيت له الموضـوع ، أشعل سيجارة وقدم لي واحدة ، لم أحب أن أغير نوع السجائر المستوردة الذي أدخنه خوفاً من السعال . سألني أن كنت قد أجلت لأبني التجنيد من قبل . أضاف أنني أعلم أولادي ، تلك مسألة مؤكدة ، وأن هذا الإبن في التعليم الآن ، ومن حقه أن يؤجل تجنيده حتى يستنفد مـرات التأجيـل . ضحكت كي أسد الطريق على أبخرة الحزن والغضب التي تصاعدت في صدري ، قلت له للأسف أن الولد يعد طالباً فاشلاً بكل المقاييس وأنه لم يحصل على الإعدادية ، رغم أني هيأت لـه كل الـظروف المناسبـة لكي ينجـح في تعليمه ، ولكنـه رسب سنة وراء سنـة . دفعت له رسـوم إعادة القيد . ولما تكرر الرسوب أدخلته مدرسة خـاصة في المـركز ، وبعـد أن

دفعت المصروفات ، رفضت أمه أن يذهب إلى المركز ، خافت عليه من اخوته الآخرين غير الأشقاء ، وقالت أنها رأتهم في الحلم يسممونه بسبب الغيـرة منه وأنهـا لا تطيق فـراقه ، وإن كـان هناك أصـرار على تعليمـه ، فستذهب معه إلى البنـدر ، رفضت ذهابهـا . بعدهـا بأيـام ، طلبت مني أغرب طلب يتصوره الإنسان ، أصرت على أن تخرجه من المدارس لأنه سيرسب وهذا سيصيبه بحالة نفسية قد تؤثر على حياته . ثم أنه لو حصـل على شهادة جامعية ماذا ستفيده ؟ العمل خلق لمن لا يـجدون ما يـأكلونه في بيوتهم .

كان المتعهد ينصت إلى وهو يدخن سيجارته الثانية وينفخ الدخـان في الهواء ويتسلى بمراقبة حلقاته إلى أن تذوب في هواء الغرفة وتتوه فيه . تكلم ، قـال لي أنه سيستفيـد من عدم ذهـاب ابني إلى التجنيد استفـادة ضخمة ، إلا أن واجب المعرفـة والصلة يجعله ينصحني بأن ذهـاب ابني إلى العسكرية سيكون الفرصة الوحيدة لجعله رجلاً . وإن لم يـذهب إلى التجنيد ، ضاعت مني آخر الفرص . قلت أني أقدر كلامه وأشكره عليه ، ولكن الناس أسرار ، وعندي ظروف صعبـة ومعقدة تـدفعني إلى التمسك به . ولو أتى طلبه في غير أيامنا لقذفت به إلى النار. لم يقتنع بكـلامي ، دخل في صلب الموضوع ، لامني لأني لم أحضر إليه منذ البداية . أبديت دهشتي فنحن الآن في البـدايـة ، ولم أذهب إلى ســواه . صحــح لي معلوماتي ، إنه يقصد بالبداية طفولة ابني ، كان من المفروض أن أحضـر إليه بعد الولادة ، وأقول له أني لا أريد أن يـذهب ابني إلى العسكريـة . يومها كان سيتصرف في الأمر على هذا الأساس وكان الأمـر سيتم بدون أيـة مشاكل ولن يكلفني مليماً واحداً . بدأت الكلمات توقظه من نـومه وكسله وفتوره . هل تعلم ـ قال المتعهد ـ لماذا طلب ابنك إلى الجهادية اليوم ؟ لأنه ذهب منذ أشهر إلى المركـز واستخرج بـطاقة تحقيق شخصيـة ، لأن ضمن استمـارات استخراج البـطاقة ، استمـارة ترسـل إلى مكتب تجنيـد

الشبان في القاهرة ، لكي يتم الكشف بموجبها عن موقفه من التجنيد . وإن لم يكن قد جند ، يستخرج له بطاقة تجنيد فوراً . لو عرفت كنت تصرفت مع أمين السجل المدني ، الحل سهل ومعروف ، لا ترسل الإستمارة الخاصة بالتجنيد إلى مصر ، ولن يعرف أحد عنه شيئاً من الآن وإلى الأبد . إن تصرف ابنك دون الرجوع إليك . وبالتالي دون علمي بالأمر ، خلق لنا وضعاً نواجهه الآن ، نسميه مشكلة ، وهي تتطلب حلاً ، والحل صعب ولكنه غير مستعصٍ ، ولا يدخل في بند المستحيلات ، وسأتصرف في الأمر وأرجو أن تطمئن . استراحت عضلات وجهي ، هدأت نفسي ، قلت له إننا جميعاً نخطىء وعليه وحده أن يصوب الأخطاء ، وإننا نصنع الكثير من المشاكل لثقتنا المطلقة في قدرته على حلها . قال أنه تحت أمري . أخذ مني بيانات ابني. طلب أن نعود بعد يومين . ذكره الكاتب بإشارة الإستدعاء . قال المتعهد إن العمدة قادر على تأجيلها أسبوعاً ، حتى يجد حلاً . ابتسم وظهرت أسنانه الصفراء وهو يوضح أن مندوب التجنيد معه في كثير من الأمور ، وأنه هو الذي سيتولى موضوع ابني ، تركته وسرت . تسرب القلق إلى نفسي ، لم أكن مستريحاً ، لأن المعهد لم يكن يبدو عليه الحماس ، كل الذين تعاملوا معه قبلي يقولون إنه يؤكد لهم أن البحر ممتلىء بالطحينة . قد يكون السبب أني عمدة ، المفروض أني الحكومة نفسها ، وربما أخافه حضور الكاتب معي ، وجوده يعد شهادة ضد المتعهد ، قررت إرسال الكاتب له ليطمئنه ويفهمه أني تعودت ألا أذهب أي مشوار بمفردي ، وقد تعودت أن يكون معي خفير أو كاتب .

في البيت لم يعرف أحد أي خبر عما حدث ، خرجت إلى الدوار ، نبهت على الخفير النوبتجي والكاتب بعدم معرفة أحد أي شيء عن الإشارة . ضحك الكاتب ، قال أن الإشارة كأنها لم تكن وهي لم تصل ولم تثبت في الدفاتر والأوراق الرسمية . كانت هناك بعض المشاكل

المعلقة صرفتها ، أحضر لي كاتب العزبة بيان الأرض التي ستعود إليّ بموجب الحكم القضائي العادل ، على أن أستعد لإستلامها . كان موفقاً بالبيان كشف بالفلاحين الذين يزرعون الأرض منذ أن نزعت ملكيتها منا . البعض يزرعها بموجب عقد ايجار ، البعض الآخر يضع يده عليها بالشراء ، اشتروها بالتقسيط المريح وبأثمان تافهة . نظرت في الأوراق . غداً سأرسل الكاتب إلى المحكمة ليعرف متى تكون صورة الحكم جاهزة حتى نستصدر قرار التنفيذ . خلال هذه الفترة لا بد من جس نبض الناس ، لا أعرف إن كانوا سيتنازلون عن الأرض بالمعروف والمودة أو أني سألجأ إلى البوليس ، وهو موجود والحمد لله ، ولا يعمل له سوى رد الحقوق للمظلومين من أمثالنا . سأرفض تسلم الأرض وعليها مستأجر ، لو حدث هذا سيكون عدم وجودها أحسن ، الفدان إيجاره ثلاثون جنيهاً في السنة ، تخصم منها الضرائب بأنواعها والرسوم والمال المتأخر . إن تسلمت الفدان وأدخلته ضمن مزرعتي الضخمة وزرعته بنفسي ، حصلت على خمسمائة جنيه صافية في السنة . وإن قبلت تسلم الأرض وعليها مستأجرون لن أتمكن من إخراجهم منها . مطلوب وضوح موقفي . وإن كنت أعتقد أن القوانين التي تحدد العلاقة بين المالك والمستأجر لا بد من تغييرها . هل كان يصدق أحد عودة الأرض إلينا ؟ ما دام المستحيل أصبح ممكناً فإن هناك الكثير من الأمور المعوجة ستعود إلى أصولها القديمة . أجدادنا هم الذين قالوا إن من يعرف فضيلة الصبر لا بد وأن ينال كل ما يريده .

أتى الليل . لم يكن عندي في الدوار ضيوف . قلت فلأتناول العشاء في البيت. تعودت تناول طعامي في الدوار إن كان عندي ضيوف. أنها ليلة زوجتي الجديدة ، التي ستظل جديدة إلى أن أتزوج عليها ، وحيث أن هذا لن يحدث ، ستبقى لها هذه الصفة . دخلت . أثناء مروري على شقة الست الكبيرة كانت تقف على بابها ، شاهدتني ، زامت ،

تذكرت موضوع ابني ، قلت لنفسي لو انكشف الأمر سيكون هؤلاء أول الشامتين . أكلت وشربت الشاي ، حمدت الله . جلست بجوار زوجتي . حكيت لها ما حصل . أكدت لها أن ابنها لن يبتعد عنها ، أحسست وأنا أتحدث معها أنها صغيرة وأنها عاجزة عن فهم معنى ما حدث، شعرت أني ظلمتها فهي لا تعرف الكثير عن دنيانا .

في الغد ، ذهب الكاتب إلى المتعهد، عاد ، طمأنني . قال لي أنه شعر من حديثه معه أن المتعهد سيضرب في العالي عندما نصل إلى دور الحساب ودفع الأتعاب . في الموعد ذهبت إليه . استقبلنا مثل المرة السابقة . يبدو أن المتعهد يتعامل مع الدنيا بدون حماس . قال لي أن هناك حلين للمشكلة، الأول سهل ومضمون ومأمون والثاني صعب ومعقد . الحل السهل تكاليفه بسيطة وهو يتلخص في استخراج أوراق لابني يسافر بها خارج البلاد ، ويبقى هناك إلى أن يموت موضع التجنيد ثم يعود . رفضت هذا الحل بدون مناقشة . كيف يسافر خارج البلاد ؟ لن يبتعد ابني عني وهذا أساس مبدئي . قال : الحل مرفوض إذن . تحدث عن الحل الثاني فشرح لي عملية صعبة لم أفهمها وعندما اتضحت لي معالمها دب الخوف في قلبي . كان من الواضح أن خناك عناصر غريبة من الناس ستتدخل في الموضوع . ولكن ماذا أفعل ؟ المحتاج دائماً في موقف صعب . فكرت في تأجيل الإتفاق للغد حتى أخلو إلى نفسي واستوعب الحكاية بهدوء . الكاتب رجاني ، المسألة لا تستحق تعكير الدم والموضوع اقترب من نهايته الموفقة . قبلت شروط المتعهد ، توقفت أمام الشرط الأخير الخاص بأن يعيش ابني بعيداً عن البلد حتى ينتهي الأمر . ضحكت وقلت من الممكن أن يبتعد ابني عن البلد اسبوعين أو شهراً . نظر إليّ المتعهد وقال ببطء وبصوت منخفض أن غربة ابني عن البلد ستطول وقد تصل إلى خمس سنوات وأنه يفعل هذا لكي لا تنكشف المسألة . وجود ابني في البلد يعد شاهد اثبات ضدي يدخلنا جميعاً

السجن . قلت له أنني كنت أرغب في عمل آخر محاولة معه حتى يحصل على الإعدادية من المدارس الخاصة . أي مدرسة ـ صاح المتعهد ـ على الورق من المفروض أن يكون ابنك في الجيش ، لا مدارس ولا تعليم . ضحك المتعهد ، قال إن الإعداية أو الثانوية ليست مشكلة ، الشهادات تباع في مصر ، وهو شخصياً يعرف طبيباً عنده مخزن شهادات في العباسية بمصر ، كل شهادة بثمنها ، ويؤثر في الثمن نوع الشهادة وسنة الحصول عليها والتخصص والمجموع . ركبني ضيق لا أستطيع وصفه . أنني أرتكب بما أفعله أكبر خطأ ، أخرجت ابني من العسكرية لأسلمه لوضع بلا مستقبل . رجعت لأمه ، حكيت لها ما حدث ، اقترحت عليها الذهاب إلى بلد أهلها . فوجئت بها ترفض فهي تخاف على نفسها وعلى ابنها ، عائلتها كبيرة متشعبة ، ولها الكثير من العداوات وعليها حالات ثأر . لم أصدق نفسي عندما قالت أنها تريد الذهاب إلى البندر تستأجر شقة وتعيش فيها هي وابنها وأسافر إليها ثلاث مرات في الأسبوع أو أشتري سيارة وأسكن في البندر وأحضر إلى البلد كل يوم ، شعرت أنها تضحك عليّ ، فهي تعرف أنني لا يمكنني العيش بعيداً عن البلد ، أنا مثل السمك ، البلد هو البحر الواسع ، إن ابتعدت عنه لحظة مت . لا يحاة لي إلا هنا . ثم كيف أترك البلد وأيامنا الخضراء أصبحت على الأبواب ، ها هي بشائر السعد تطل علينا لأول مرة . دخل قلبي الشك فيها ، أنها هنا تحت عيني ولا يستطيع أن يتسلل أحد إلى حجرتها ، من يدريني ماذا يحدث لو ذهبت إلى النبدر هي وابنها الذي لا يعتمد عليه . أطلت التفكير . لو عرفت أن المسألة ستصل إلى هذا الحد ، لفضلت ذهاب ابني إلى التجنيد . دخلت حجرة نومي ، حاولت النوم ، لم تغمض عيني ، تقلبت ، سمعت اهتزاز السرير تحتي ، فذكرني بإهتزازاته أيام كنت رجلاً حقيقياً ، فكرت في الجانب الآخر الذي لم أتطرق إليه حتى الآن ، كان علي أن أبحث للمتعهد عن شاب في سن ابني ، مولود معه في يوم واحد وله ملامح قريبة منه ، لكي

يذهب إلى التجنيد بـدلاً من ابني . بمجرد عودتنا أمسـك الكاتب بـدفتر مواليد البلد . جلس يدرس، أتاني ومعه ورقة صغيرة فيها اسم مصري . غضبت ، طلبت منه البحث عن اسم آخـر . لـو قلت لكم على السبب لضحكتم ورفضتم تصديقي . مصري هـذا ابن خفير نـظامي في المعاش وهو معروف في البلد كلها بذكائه ، وتفوقه. دائماً الأول في المدرسة ، وأنا لا أخفي إعجابي الشديد به . كم من مرة حسدته وتمنيت أن يكون أحـد أبنائي ، وضربت كفاً بكف من أحوال الدنيا غيـر المفهومـة ، أنها تعـطي الحلق لمن لا أذن له . في العام الماضي ترك مصري المدرسة ، لأن كل أخوته من البنات ، والده لا يستطيع مواصلة تعليمه في البنادر ومعه ثـلاثة أفدنة بالإيجار من الإصلاح الزراعي تحتاج لمن يرعاها . جلست أفكر في تصاريف العالم . ابني الذي أقدر على تعليمه ولو في الصين فاشل ، وهذا الشاب الذي لا يجد بدلة جديدة ناجح ومتفوق ، بخصوص التجنيد يعـد معفى لأنه الأخ الوحيد على خمس شقيقات ، وابني الذي يحتاج لإكمال تعليمه لا بد من تجنيده . عاد الكاتب يقول أن أنسب واحد هو مصري . رجوته البحث عن غيـره فأنـا إنسان وفي صـدري قلب وفي القلب رحمة باناس ولا أحب ظلم أحد . قال لي الكاتب أنه من ناحية وجود شبان غير مصري هناك الكثيرون . قدم لي كشفاً بمواليد اليوم الذي ولد فيه ابني من الذكور . بعد استعراض الأسماء والعائلات وجدت أن الوحيد المناسب هو مصـري . الكاتب قـال لي : لماذا أتـردد ؟ أنني بهـذا أخـدم مصـري . الأرض التي يزرعونها ستأخذها الحكومة وتعـطيها لي ، ولن يصبـح لهذا مورد رزق سوى معـاش والده ، وهـو لا يصل إلى ستـة جنيهات . لهـذا سيبحث مصري عن عمل وإن لم يجده إلا بواسطة سيتطوع في الجيش . وعندما أرسل مصري إلى الجيش بدلاً من ابني أعطيه بذلك فرصـة نادرة لكي يعيش ويفتح بيتهم ، هناك سيأكل ويشـرب ويسكن ويتسلم ملابسـه وعليّ أنا مراعاة أهله هنا . هل كانوا يحلمون بهذا ؟ طمأنني الكاتب . قال

أن الخدمة في الجيش هي الوسيلة الوحيدة للحصول على وظيفة مضمونة . يوجد نظام في القوات المسلحة إن من يخدم فيها لا بد من تعيينه في وظيفة ثابتة على درجة حكومية بمجرد إنتهاء خدمته . وإن كان لا يحب الخروج من الخدمة ، يجدد ويحصل على رتبة ومرتب عال . في كل الأحوال ما سيحدث لمصري يعد خدمة عظيمة . أقسم لي الكاتب بالطلاق شافعي ومالكي وأبو حنيفة أن مصري كان يبحث عن استمارة تطوع في الجيش ، وذهب أمس إلى مكتب البريد يسأل عنها ، وقيل له أن الإستمارة توزع بمعرفة مندوب التجنيد في المكتب أو القسم ، وسر الحكاية ، إن عائلة مصري سمعت خبر عودة أرض الإصلاح لأصحابها ، فإنسدت الدنيا في وجوههم وعرفوا حكاية الفلاح الذي رفض تسليم أرضه ، في بلد مجاور ، وقاوم قوات البوليس بالقوة فقتلوه . مصري كان سيذهب إلى الجيش ، سواء باسمه أو بدلاً عن أحد ، ولا يوجد فارق بين ذهابه متطوعاً أو على أنه ابن العمدة .

لم أقتنع ، تهت من التفكير بين الخطأ والصواب ، مشكلتي إن ضميري يقظ دائماً ، يحاسبني على أصغر تصرف ، وتلك هي بلوى أولاد الناس الذي وجدوا من يربيهم وينفق عليهم في المدارس ، بعكس الذين لم يتعلموا . ظل الكاتب يحدثني ، محاولاً إقناعي بأن ما أفعله لمصلحة الخفير وابنه أولاً ، ولمصلحة ابني ثانياً . أخيراً وبعد أن تعب الكاتب من الكلام وتعبت أنا من الإنصات وافقت .

قال الكاتب وهو يتركني ذاهباً إلى منزله :

ـ إذن على بركة الله .

في الثقافة والحرب

الحرب في برّ مصر

يوسف القعيد

دار الشئون الثقافية العامة

المتعـــهد

الأيام السيئة فائدتهـا الوحيـدة هي النوم . وأنـا أطبق هذه النـظرية يومياً . أصحـو من النوم لكي أنـام مرة أخـرى ، وأظل نـائماً أتقلب على الجنبين اليمين والشمال والوجه والظهر مثل الطنبور الـذي تعب وداخ من كثـرة اللف حول نفســه ، لا أصحـو إلا عنـدمـا يتعبني جسمي من كثـرة النوم . عظامي مفككة ، وعيناي متورمتان ، وذهني كأنه يطفو فوق سطح من الحياة الهادئة . وعندما يمر الناس أمام بيتي ويعرفون إني نائم يقولون بصوت عال : نوم الظالم عبادة ، مع إني لم أظلم أحـداً طول عمـري ، حياتي كلها خدمات للنـاس . العادة إنـه بمجرد أن تحـل مشكلة لأحد ، وتصل إلى لحظة دفع المعلوم ، أصبح ظالماً في نظره . اليوم ، كنت نائماً كعادتي ، أحلم نفس الحلم الذي أعيشه ويسعدني ويقلل من بؤس حياتي كلما أغمضت عيني : كان مدير التربية والتعليم يعتذر لي في حفل عام ، ويطلب مني العودة إلى العمل في ميدان التعليم ، بسبب أقدميتي اشترطت العودة ناظر مدرسة فوراً ، وافق المدير العام على كل شروطي ، اعتذر مرة ثانية ، قال لي : إنه يعتذر باسم وزارة التـربية والتعليم ، تنـازلت ، قلت إني أقبل الاعتذار ، وسأذهب إلىٰ المدرسة من الغد . وفي هـذه اللحظة الحلوة صحوت من نومي على صوت بوق سيارة . غضبت لأني كنت أريد أن أعيش مـع الحلم فتـرة أطـول . سمعت بـوق السيـارة مـرة أخـرى .

استغــربت ، السيــارات في بلدنــا قليلة ، زبـائني ليســوا من أصحـاب السيارات . من يركب سيارة يعرف الكبار والحكام ويمشي أموره بمعارفه وناسه ويعرف مسالك وأبواباً بعدد شعـر رأسه . تعـودت أن لا يحضر إلي سوى الفقراء والمساكين . قليلي الجهد والحيلة الذين نقول عنهم إن كل الـطرق مسدودة في وجـوههم دائماً . أتى أحـد أبنائي ، أخبـرني بوجـود ضيوف غرباء ، خرجت ، وجدت عمدة أحدى قرى المركز في المندرة . قلت في نفسي إن الأيام القادمة سترينا العجب ، عمد هذه الأيام رجال من الورق ، يغرق الواحد منهم في شبر من المياه . انتهت أيام العمد الـذين كانوا يقدرون على عمل المستحيلات . خرجت بجلباب النوم . كان فمي جافاً . بللته بقليل من الماء . شربت ، بلعته بصعوبة وأنا في طريقي إلى المندرة الجالس فيها العمدة . تبدد فرحي ، فالعمدة أحد أغنياء الناحية . قـد تبدو هـذه ميزة ، ولكن الأغنيـاء هم الذين يفـاصلون فيمـا أطلبـه من مبـالغ . الفقـراء يدفعـون دون أخذ وعـطاء ، لا أعـرف من أينيحضـرون النقود .

لم يكن لدي عمل . كنت أمر بفترة كساد . قلت لنفسي إن نصف العمى خير من العمى كله . في المندرة لم يكن العمدة بمفرده ، معه رجل غريب ، اقتربت منـه ، عرفت فيـه كاتب حجـرة التليفون عنـد العمدة . سلمت ، جلست . تبـادلنا أحـاديث معـادة عن الصحـة والحـال وأخبـار الدنيا . قلت بعض المجاملات التي تقـال في مثل هـذه المواقف . قلت بصوت حرصت أن يكون ودوداً ، إن دارنا نورت وإن النبي زارنا اليـوم ، وإني سعيـد بتشريف حضـرة العمـدة لـداري المتـواضعـة . اقتـرب مني الكاتب ، طلب مني تهنئة العمدة ، صدر الحكم بعودة أرضه إليه أمس ، وأقيم احتفال كبير في البلد . كان من المفروض دعوة كل وجهاء الناحيـة لحضوره وأنا منهم ، ولكن الفرح أتى مفاجئاً فلم يتمكن العمدة من دعوة أحد . عموماً الاحتفال الكبير سيؤجل لحين تسليم الأرض بالفعل . وأنـا

مدعو من الآن لحضور الاحتفال الضخم . كنت متأكداً إن الكاتب يكذب علي ، وإنهم لم يفكروا في دعوتي ، ولكن الجلسة والمناسبة فرضت الكذب عليه . نفخت عروق رقبتي بهواء كاذب ، هنأت العمدة ، قلت له : إن أي انتصار له ، هو انتصار لنا جميعاً . لم أكن أعرف ساعتها على من تعود كلمة جميعاً هذه . قمت لأقبل العمدة ، في مواجهتي مرآة كبيرة ، شاهدت وجهي فيها ، الوجه الذي ظهر أمامي كان وجهاً سعيداً . قلت إنه وجه شخص آخر غيري لا يمت لي بأية صلة . تصورت أن بشراً آخرين يسكنون داخلي . لم أكن أعرف أبعاد ما حكاه لي الكاتب عن عودة الأرض وخلافه ولكن الفرح الذي تصنعته أخرجني من الحالة التي كنت أعيش فيها ، حمل لي راحة داخلية جعلتني أبدو كالسكران أو المسطول . استبشرت خيراً من الكلام . ما أخذ من العمدة أرضه . رجوعها يهم أولاده أكثر منه . أما ما ضاع مني فهو وظيفتي وشرفي ومستقبل أولادي . من يوم حرماني من قول كلمتي : قيام ، جلوس ، وأنا مثل النخلة العاقر أو الرجل العاجز . حديث كاتب العمدة انتشر بداخلي حاملاً معه طمأنينة جديدة . قلت إنه ما دامت أرض العمدة عادت إليه ، لا بد وإن شرفي ووظيفتي واعتباري في الطريق إلي ، الحكاية مسألة وقت فقط . بعد التهاني لم نجد كلاماً نقوله لبعضنا . سكتنا . أتى الشاي . قمت بصبه من البراد في الأكواب . أخرج العمدة من جيبه علبة سجائر لم أر مثلها من قبل . قمت بسرعة . أحضرت علبة سجائري من مكان نومي . تعازمنا ، وحلفنا بأغلظ الايمان . تحدثت عن الواجب وأصول الضيافة . العمدة حسم الأمر ، قال إننا أهل وإنه في منزله ، لا يوجد بين الأهل فرق . مع الشاي والسجائر شعرت بعودة أيام العمل . كنت أريد الدخول في الموضوع .

ـ خيراً .

رد الكاتب :

ـ انشاء اللّه خير .

تنحنح العمدة . بصق في منديل له رائحة عطرية . نظر حوله . قمت ، أغلقت باب المندرة الداخلي الذي يوصلها بالبيت ، وأغلقت الباب الخارجي الذي يفتح على الشارع . عدت . جلست هذه المرة في مواجهة العمدة مباشرة . بدأ الحديث ، وانصت له . صحح الكاتب بعض معلومات العمدة وشرح لي الأمور التي لم أفهمها . كان يذكرنا بوجوده معنا ، كلمة من هنا وكلمة من هناك . فهمت الحكاية . وجدتها صعبة . كل الحيل التي اتقنها قد لا تفلح . مشكلته تتلخص في إنه لا يريد أن يذهب ابنه إلى العسكرية . هو حر ، الناس أسرار ، ليس من السهل معرفة أسرار شخص ما ، حتى لو كان أخاك. كل إنسان منا عبارة عن حزمة تعسة من الأسرار . عندي حلول جاهزة ومعروفة : أن يطلق الرجل امرأته ويصبح الابن هو العائل الوحيد لأمه المطلقة . دهشت عندما وجدت العمدة يرفض هذا الحل بشدة ، زوجته الأخيرة لم تنجب له سوى هذا الابن ، وهذا يجعلها صالحة لتنفيذ الحل ، رفع العمدة يده في وجهي ، قال بشكل لا يقبل المناقشة :

ـ لا يمكن التفكير في هذا الحل .

حاولت فتح فمي . قاطعني العمدة. قال إنه من الأحسن التفكير في حل آخر بدلاً من أن نتعب أنفسنا ووقتنا وجهودنا في حلول لن تتنفذ . صرفت نظري . الجالس أمامي عمدة وهذا معناه إن حلول الزمان القديم مثل قطع الأصبع أو وضع مياه نار في العين لن تنطلي على أحد . احترت . لم أحب سد الطرق في وجهه ، فضلت ترك الباب موارباً . طلبت منه أن يتركني فترة من الوقت . كان العمدة متعجلاً . بدا لي إنه ينوي أن يجلس معي ولن يتركني قبل أن أقدم له الحل . أفهمته إن معي آخرين ، سأتشاور معهم . قال لي : من ناحية التكاليف لا يهمني ، النقود معه مثل حبات الأرز . كل الأغنياء يتكلمون بهذه اللغة في البدايات ولكنهم ساعة الحساب يرونني نجوم السماء في عز الظهر . أفهمته إن

الحكاية ليست سهلة ، وإن هناك ظروفاً صعبة سنمر بها . طمأنني ، قال إنني أكبر من مشكلة بسيطة مثل هذه . على الباب اقترب مني ، نظر في كـل الاتجاهـات ، ذكرني بضـرورة اليقظة ، في مثـل هذه الأيـام ممكن حدوث أي شيء ولا يقع عادة إلا الشاطـر ، وأنا ألعب بـالبيضة والحجـر وهذا يجعل احتمالات وقوعي أكثر. مشى وتركني أفكر في حالتي وما حدث لي . أعتقد إن العمدة قد حكى لكم من قبل حكاية فصلي من التـدريس واحالتي إلى المعاش . سأشكره لأنـه أعفاني من هـذه المهمة الصعبـة ، الحكـاية تثيـر الأسى في النفس ، وتبدو مثـل جبـال الهم فـوق القلب . لا أعرف ماذا أقول . كل ما أفعله لا يعجبني ولا يرضيني . كنت مـدرساً إلزامياً مثل آلاف المدرسين في بر مصر . اليوم ، عندما يقابلني تلاميذي ، يـديرون وجـوههم إلى الناحيـة الأخرى . صـدقوني لا أذكـر كيف بدأت المسألة . لي أخت مات زوجها وتـركها صبيـة ومعها ولـد منه . أصبحت أرملة أو هجالة بلغتنا نحن أبناء الريف . لم يكن لها في الـدنيا سـواي . تـرك لها زوجهـا خمسة أفـدنة لم تكن سبب سعـادتها ، بقـدر ما جعلت زواجها مسألة معقدة ، كل من تقدم لهـا تصورنـا إن عينيه على الأرض ، ولهذا ظلت بدون زواج . الأيام تكر بسرعة . وصل ابنها إلى سن التجنيد فجأة . كان من المفروض أن يعفى من التجنيد قـانونـاً ، على اعتبار إنـه العائل الوحيد لأمه الأرملة . في المركز قالوا إن منطقة تجنيد الاسكندرية هي الجهة التي تعطي شهادة المعاملة العسكرية . سـأثير ضحكـاتكم إن قلت نادماً ، ليتني ما ذهبت إلى الإسكندرية يومها ، لا بد وإن اليوم الذي ذهبت فيه كان يوم نحس بالنسبة لحياتي كلها . أذكر اليوم جيداً : الفصل هو الشتاء ، أما الشهر فآخر شهور العام ، ديسمبر ، البرد يومها كان يجمد الأصابع في قريتنا ، ولكن الدفء في الإسكندرية كانت له رائحة حلوة . كنت ذاهباً أطالب بحق في وضوح الشمس ، ومع هذا وجدت هنـاك بئراً اسمه فم الحكومة المفتوح دائماً . تعرفت على ضابط من قرية بجوارنا ،

كان يضع نسرين على كتفيه ، وقال إنه كان جندياً متطوعاً ورقى إلى أن وصل لهذه الرتبة . الفلاح يشم رائحة الفلاح مثله ، ولو كان في الصين . سمعني أتكلم على الباب ، اقترب مني ، سألني عن بلدي ، قال لي : إن لغة الكلام ومخارج الأحرف من فمي ذكرته بالساقية والحقل والنورج والطنبور . تعرفت عليه ، ذهبت معه إلى بيته . سهل لي الحكاية وطلب مني خمسة جنيهات ، أقسم بالطلاق إن المبلغ لن يخصه منه مليم واحد ، سيعطيه لأناس آخرين داخل المعسكر . أعطيته ما طلبه . مكثت في منزله ليلتين وعدت إلى البلد ، ومعي ابن أختي وفي يده شهادة المعاملة . حضرة الضابط بلدياتي قال لي إن منزله ومكتبه مفتوحان لي في أي وقت إن كانت هناك أية خدمة لبلدي أو البلدان المجاورة ، فهو تحت أمري . كان كبيراً في السن ، شكله ومظهره يقولان لك إن أمامه شهوراً قليلة ويحال إلى المعاش . ويبدو إن هذا سر مغامرته ومجازفته . في البلد ، قال الناس لبعضهم إنني ذهبت مع ابن أختي وعدنا في نفس القطار الذي ذهبنا فيه ومعنا شهادة الأعفاء . كل بيت له حكايات مع التجنيد وكلها تنتظر الحل . حضر إلى كثيرون من أهل البلد . وهكذا وجدت نفسي في كل يوم بعد الظهر راكباً القطار ، متجهاً إلى الإسكندرية . كثرت المشاوير . أجرت شقة إلي هناك وتزوجت . زوجتي الثانية كانت من نساء البنادر البيض ، اللاتي ولدن وتربين في أيام الرخاء . أصبح الحال جيداً والضابط كان يقدر على عمل المستحيلات في كل يوم . كنت أدرك إن كثيراً من المشاكل سهلة الحل وإن الضابط يحلها بأصابع قدميه . كثر حديث الضابط عن صعوبة المعيشة وارتفاع الأسعار ، وإن الناس تداريها الحيطان . اتسعت دائرة العمل ، ودخل فيه آخرون من المركز . عرف الناس حكايتي وأرسلت الشكاوي إلى الجهات المسؤولة . قبض علي . هوجمت شقتي في الإسكندرية ، هربت ، رجعت إلى بلدنا . وقت الفجر وأنا أرتدي البيجاما حدثت فضيحة . بدأ التحقيق ، سين وجيم ، أوراق وتحريات

وضباط ومباحث ومخبرون . تم الإفراج عني بكفالة . أوقفت عن العمل . أصبحت بـدون مورد رزق . مـددت يدي لمن قـدمت لهم خـدمـاتي من قبـل . صحيح إنني كسبت الكثيـر ، وإن المكسب كان يكبـر كل يـوم ، ولكني كنت أقول إن اللّه أعطى واللّه أخذ . وكلت محامياً كبيراً ، ولكن زوجتي الإسكندرانية شهدت ضدي ، قـالت إن ما كنت أقـوم به لم يكن يعجبها . فكرت في طلاقها ، قال لي الناس إن الطلاق ليس في صالحي، قد تجرني إلى المحاكم ، النفقة ومؤخـر الصداق ، وأتعـاب المحامـاة . تكفيني مشكلتي الأساسية . تركتها معلقة ، لا هي زوجة ولا هي مطلقة . تصـورت إنها ستـطاردني في كل مكـان . مرت الشهـور بـدون خبـر من نـاحيتها . سـألت عنها ، عـرفت إنهـا تـزوجت من رجـل آخـر وهي في عصمتي . فـرحت ، قلت سأدخلهـا السجن . بـدأت البحث عنهـا ، لم أجـدهـا ، كـأن الأرض انشقت وبلعتهـا . عـرفت بعـد بحث مضن إنهـا تـزوجت من رجل يعمـل في ليبيا وسـافرت معـه . نسيت أن أخبـركم إن الضابط بلدياتي طلع في التطهير وأنا أحلت على المعاش . صحيح إنهم لم يضبطوا معي أي أوراق تستخدم كأدلة ضـدي . لم أعترف ولم يتقـدم أحد كشاهد إثبات سوى شهادة زوجتي التي لم يعـد لها وجـود . أكد لي الكـل إنني سأخـرج من القضية بـراءة . ولكنهم في المحكمـة قـالـوا إن القضية لها بعد سياسي ، فهي متصلة بالدفاع عن الوطن . ثم كيف يؤتمن النشء ـ رجال مصر في السنوات القادمة ـ بين يدي رجـل عمله بعد الـظهر تهريب الناس من تـأدية ضـريبة الـدم . المحامي الـذي وكلته قـال لي : السبب في إحالتي إلى المعاش هو إن القانون في أجازة ، ولنطلب الرحمة من رب العباد لمصر . لو كانت هناك سيادة للقانون كنت طلعت بـراءة . أيامها لـم أفهـم علاقة ما أقوم به بالسياسة والـدفاع عن الـوطن ضد أعـداء الثـورة الذين يتـربصون بهـا . ما كنت أفعله : تسهيـل بعض المشكلات الصعبة للفقراء والمساكين الذين لا يعرفون الفارق بين حرف الألف وكوز

الذرة . كنت أدفع ثمن التخلف ، ثلاث أرباع أهـل بلدنا أميـون . أقسم لكم إنني أشعر إن ما أقوم به عمل وطني ، مثل مؤسسات العلاقات العامة في أوروبا وأمريكا ، فكيف أعاقب إذن ! النـاس يسمونني المتعهـد . لا أعرف من الذي أطلق علي هذا الاسم لأول مرة . الاسم في حد ذاته دفاع عني . لا أدري هل أنا متعهد سعادة أم متعهد متاعب ؟ المهم اسمي الأول تاه، ذاب، ضاع. لم يبقَ منه سوى كلمتي الأفندي أو الأستاذ. بعض الناس تقول : يا أستاذ متعهد أو يـا متعهد أفنـدي ، وهذا يـدفعني إلى قليل من التفلسف وهو حق لي ، فمن يكتب لكم هذا الفصـل من الروايـة مدرس ابتـدائي سابق . كلمـة المتعهد أتت من العهـدة أو التعهـد بشيء ، وأنـا عهدتي مصالح الناس الذين يعجزون عن القيام بها أو إنهائها في مصـالح الحكومة الصعبـة أو المعقدة . أنـا متعهد حـل العقد . وأنـا عندمـا أحل المشاكل التي تسبب للناس الإرتباك والحزن والخوف ، أتصور إني لا أقل عن الزناتي خليفة أو أدهم الشرقاوي . بالمنـاسبة أدهم يمت بصلة قـرابة لجدي ، الفارق بيننـا وبينهم إنهم كانـوا فرسـان السيف والبندقيـة ، وأنا فارس الذهن اليقظ والتفكيـر الحاد والقـدرة على حل أعقـد المشاكـل . حكايتي تحتاج لمجلدات ، ومغنواتي معه الربابة ، وليالي مقمرة من ليالي الزمان الجميل الذي مضى ولن يعود إلى بر مصر مرة أخرى أبداً . فعلت الكثير وسعادتي الوحيدة تتركز في نجاح ما أقوم به من خدمات . في الفترة الأخيرة ، أيقنت إنني لو عشت بدون تأدية هذه الخـدمات للنـاس لفقدت مبـرر وجودي في الحيـاة . أنا لا أخفي مـا قمت بـه ، وهـا أنـذا أقـولـه بوضوح . أنا أقدر على استخراج بطاقات شخصية لأنـاس لم يولـدوا ولم يروا الدنيا ، وأوفق في الحلال بين رؤوس لم تسمع عن بعضها . وأبيـع أراضي لا وجود لها إلا في الآخرة ، وأنقل حدودالحقول ، وأحصل على توقيعات الناس على إقرارات لا يعرفون ما بها ، أعمال كثيرة ، أقربها إلى القلب المتصلة بالتجنيد وحكاياته من قريب أو بعيـد . في كل مـرة كنت

أتمنى أن تكون هي العملية الأخيرة ، ولكن بمجرد نجاح العملية ، أدخل دون أن أدري في عملية جديدة . لا أعرف كيف كانت تتم عملية الدخول في عمليات جديدة وخطرة . ياه . لماذا أحكي ؟ يبدو إن الرغبة في البكاء هي السبب ، أريد البكاء على نفسي ، وأريد اشراككم معي . عموماً زالت الغمة ، من شهور مضت زارني حضرة الضابط ، بلدياتي القديم ، الذي حضر ليعيش وسط أهله بعد خروجه في حركة التطهير . قال لي إنه حضر للتهنئة ، صدر قانون ينص على أن من فصل من عمله بغير الطريق التأديبي لا بد من عودته إلى العمل . عرض علي رفع قضية معاً ، السنا مظاليم العهد الماضي ؟ طلبت منه الصبر ، أجدادنا أوصونا : في التأني السلامة ، وفي العجلة الندامة . ما المانع من الانتظار لحين صدور أي حكم ، لكي نضمن القضية قبل رفعها ، هدأت حالتي ، عاد العمل أكثر من الأول . البلد سابت والكل يعمل ما يريده دون خوف . صديق متعاون من الإسكندرية طلب مني توسيع دائرة العمل ، فنحن نمر بفرصة لن تتكرر ، المصريون الآن أحرار فعلاً . لأول مرة في تاريخ وادي النيل ، كل مصري حر في عمل ما يريده . من يرغب في السفر يسافر ، من يبغي الهرب حر في الهروب ، طريق أبو زيد كله مسالك ، وكل الطرق تؤدي إلى ما يريد القادر على الدفع . وما دام معك قرش ، فأنت قادر على فعل ما يساوي هذا القرش . أعرف إن رغبتكم الأولى هي معرفة ما تم في أمر ابن العمدة . أعتذر لكم فقد أدخلتكم في أمور ربما لا تهمكم . عذري هو رغبتي في الفضفضة . الهموم فوق القلب ليل نهار ، تعجز الجبال عن حملها . أعود لحكاية ابن العمدة . بعد أن مشى العمدة ، جلست أتذكر . لفت نظري في كلامه خبر رجوع أرضه له . انبثق بداخلي اطمئنان مريح . قلت إن وظيفتي ستعود لي . قررت ترك كل هذه العمليات بمجرد عودة الوظيفة . أقسمت أن تكون عملية ابن العمدة هي مسك الختام . أكمل الحكاية خوفاً من تسرف الملل إلى نفوسكم

فتنصرفوا عن القراءة وبذلك تصبح الرواية مهددة بالموت . ذهبت إلى المركز . من كثرة تعاملي مع المشاكل أصبحت أعرف المشكلة من الكلمة الأولى ، بعض المشاكل تقول لك من اللحظة الأولى هذا هو حلي ، والبعض الآخر مثل عقدة الحرير . في الطريق إلى المركز قابلت الكثيرين ، عواطف الناس ناحيتي في هذه الأيام غير واضحة . شماتة أيام الرفد ضاعت ولكن حب أيام حل المشاكل لم يصل إلي بعد . يقول بعض الناس إنني قد أعمل ناظراً للمدرسة . في المركز دخلت مكتب التجنيد . وقفت أمام مندوب التجنيد ، غمزت له بعيني ، خرجت . انتظرته في الخارج ولكنه لم يحضر ، يبدو إنه لم يرني جيداً ، عدت له . هذه المرة رآني وحضر بعدي . خلف المركز جلسنا على شاطىء قناة صغيرة ، تروي مزرعة المركز . جاءت الجلسة تحت شجرة كافور عمرها أكبر من عمر المركز نفسه . أبدى المندوب سعادته بحضوري :

ـ أهلاً يا حضرة الأستاذ .

أسعدتني كلمة حضرة الأستاذ ، بدت كبشائر الخير . جلسنا متواجهين . لم تكن حالتي حسنة . نظر حوله في كل الاتجاهات . طلب مني الدخول في الموضوع مباشرة . حكيت له عملية ابن العمدة . صمت . سرحت عيناه ناحية السماء البعيدة . قام ، وقف . رمى عود الكبريت الذي كان يلعب به في أسنانه على الأرض . ابتسم والإبتسامة تحولت إلى ضحكة . تكلم ، نفس خطبة كل مرة : مخاطر العمل ، احتمالات انكشاف أمرنا . استمعت لما قاله في هدوء . قلت له ما يريد سماعه . أكدت إن مخه يساوي العالم بكل ما فيه . أعرف إنها مباراة بيننا ، ما يقوله مقدمات للحصول على أكبر مبلغ ممكن . قررت استغلال الموقف . رميت له الطعم في السنارة . قلت :

ـ إنها صفقة العمر .

أصبح كل منا يقف على مساحة أرض مناسبة . استراحت ملامح

وجهه . تردد قليلاً ، ثم جلس على الأرض . بدأت لعبة اللف والدوران . كلماته كلها تدور حول الموضوع . تجنب ذكر أهم ما يشغله ، وهو موضوع الأتعاب . قلت له :

ـ ندخل في المفيد .

رد علي :

ـ لا يوجد فرق بيننا .

أكمل إن ما يشغل تفكيره إن العملية قد تتسع ، ربما دخلت معنا عناصر جديدة . العملية ستتم في المركز . لن نحتاج إي مساعدة من الإسكندرية أو القاهرة . نصف العملية في المركز والنصف الثاني في البلد ، وسيقوم به العمدة نفسه . فتحت فمي من الدهشة لأتكلم . قبل النطق بالحرف الأول ، قال لي :

ـ أنا الوحيد فيكم الموظف الرسمي .

قال إنه بحكم عمله مندوباً للتجنيد يصبح في وجه المدفع . الشبهات تحوم حوله لحساسية عمله . المركب إن غرقت سنهرب منها جميعاً إلى شاطىء الأمان عداه ، فهو يعد المركب نفسها . أكد إني أعمل من خلاله ، ألعب خارج الحلبة ولكن هذا ليس معناه تسليمه رقبتي ووضع الموضوع كله بين يديه . قلت :

ـ الكلام عن الأتعاب سابق لأوانه .

كنت أريد الأطمئنان إلى تنفيذ العملية أولاً ، ثم نتكلم في الأمور الأخرى . اقترب مني ، شعرت بأنفاسه واضحة على وجهي :

ـ كل أمر أوله شرط آخره نور . نتفق أولاً .

حكى قصة من نجحوا في السرقة ولم يرهم أحد إلا وهم يتعاركون على تقسيم ما سرقوه . لم أعرف بماذا أرد عليه . بدت الحكاية معقدة . منذ اللحظة الأولى فكرت في ترك الأمر من الآن . أتاني صوته :

ـ بعد ثمان وأربعين ساعة تعرف كل شيء .

فرحت ، قلت له إذن فلنؤجل الأمر كله إلى ما بعد الغد ، تركته وسرت . في الطريق حلمت باليوم الذي سيتوب علي اللّه فيه من هذا العمل الذي لا أحبه ، بسببه حياتي كلها جري ، يطاردني فيه الخوف والملاحقة طوال اجراءات أي عملية ، إلى أن يتم الأمر بنجاح ، وفي هذه اللحظة يخرج لك من تحت الأرض ألف شخص ، يقول لك كل منهم ، لقد اشتركت معك وأريد نصيبي . والبعض الآخر عرف بالأمر ، وهو لا يطيق السكوت ، ومصلحة البلاد في خطر والواجب الوطني يفرض عليهم إبلاغ الجهات المسؤولة أكمل أنا : سنعطيك ثمن السكوت . وهكذا لا يتبقى لي في النهاية سوى الملاليم القليلة . ولأنه يفصل بين المبلغ والآخر فترات بعيدة، يأتي المبلغ ليجد الديون في انتظاره التي تكون أحياناً أكبر من الذي حصلت عليه. لو أضفت إلى كل هذا التهديد اليومي، محاولات التخفي ، الخوف من شبح السجن ، التفكير في الفضائح . إني أتحمل كل هذا ولكن ما ذنب أولادي ، إن قلت إن ضميري يعذبني ستضحكون ، لن يصدقني أحد ، ستقولون إنني أتلاعب بعواطفكم . أقسم لكم لولا أحتياجي في أيامي هذه ما فعلت هذا . ثم إن نصف أعمالي وقوف بجوار المظلومين . صحيح إن حكاية ابن العمدة ليست من أجل إنسان مظلوم ، وأنا غير مقتنع بها ، والاحتياج فقط هو الذي دفعني للتوسط فيها . ابن العمدة لا بد من ذهابه إلى الجيش فهي ضريبة دم . صدقوني لو كان ابني هو المطلوب لأخذته من يده حتى باب منطقة التجنيد ولعدت سعيداً فخوراً بوجوده في خدمة الوطن . العمدة حضر إلي في ظرف صعب ، الأيام جافة ، لا بد من اسكات أصوات الجوع . لا أحد منكم يعرف معنى هاتين الكلمتين : الجوع كافر . خصوصاً عندما تقرأهما وأنت جالس على مقعد مريح في شقة عصرية مليئة بكل وسائل الراحة وبطنك متخمة بأنواع الطعام ، بل قد تبدو سكران من كثرة الأكل . إن

الطعام الجيد الدسم يسكر مثل الخمر ، لهذا لن تصدقوني عندما أردد هاتين الكلمتين : الجوع كافر . عموماً سأرددهما لنفسي بعيداً عنكم . وأريد أن تعرفوا إنه لم يصرف لي معاش منذ تركي الخدمة لأنني فصلت في قضية تمس الشرف . الآن نستمر في الرواية . في الموعد وجدت مندوب التجنيد خلف المركز ، حالته أحسن من المرة الأولى ، قدم لي سيجارة . ضحك أكثر من مرة . قال إنه فكر في حكاية ابن العمدة اليومين الماضيين ، الموضوع ليس سهلاً بالمرة ، ولكنه من أجل خاطري وخدمة للمساكين الذين يقصدوننا في أزماتهم ، سيقوم بعمل اللازم . لن يذهب ابن العمدة إلى الجهادية ، ولكننا سنحتاج جهود موظف السجل المدني وموظف من مكتب الصحة واثنين من الموظفين في أية مصلحة حكومية ورئيسهم المباشر ، على أن يكون في هذه المصلحة خاتم شعار الدولة . خفت منه . أدخال كل هذه العناصر لن يجعلني أحصل إلا على الفضلات . قلت له ، لنتحدث في صلب الموضوع . دارت عيناه في أركان الكون الأربعة . طلب مني الأبتعاد عن المركز .

ـ الحيطان لها آذان .

قالها وهو يأخذني من يدي مبتعداً عن السور ، ودخلنا حوض جرجير جلسنا في وسطه ، وكانت رائحة أوراق الجرجير الخضراء تصل إلى أنفي واضحة . ابتدأ مندوب التجنيد يتكلم ، قال إن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين ، وإنه لكي تتم حكاية ابن العمدة بدون متاعب ، هناك حل صريح وواضح . إنه عمدة ولن يغلب في حكاية بسيطة . صحت فيه :

ـ كيف هذا ؟

قال بهدوء :

ـ السرعة من الشيطان .

المسألة بسيطة . أخذ حضرة الصول مندوب التجنيد يشرح فكرته

لي ، وأهم ما في الأمر مضمونة مائة في المائة . اتجهنا إلى منزلي . طلب مندوب التجنيد ورقاً وقلماً . رسم الخطة من الألف إلى الياء . كتب عنواناً ضخماً : مراحل التنفيذ . العنوان الثاني : المشتركون في العملية . والثالث : تكاليف العملية . كان ما كتبه مندوب عبارة عن الكروكي العام والخطوط العريضة للعملية . تركني مندوب التجنيد . وجدت أمامي الأوراق التي كان يخطط فيها بقلم رصاص ، ودون أن أدري ـ والفراغ يفعل بالناس الأعاجيب ـ أمسكت بالقلم الرصاص . استهوتني الحكاية ووجدتني أستخدم ذهني العاطل ربما للمرة الأولى منذ سنوات . غرقت في العمل . بعد ساعات وجدت بين يدي كومة من الأوراق مكتوبة بخط منسق الأحرف ، فيها الخطة كلها . استأذنكم في ضم الأوراق التي كتبتها إلى الفصل الخاص بي ، لكي تدركوا معي ، كيف أهدرت مصر واحدة من مواهب أبنائها العظام دون ذنب جناه .

أولاً : مراحل التنفيذ :

المقصود بمرحلة التنفيذ الوحدة الكاملة من الاجراءات المرتبطة ببعضها البعض ، والتي يؤدي نجاح أي منها نجاح الأخرى ، كما أن انكشاف أي وحدة لا بد وأن يؤدي إلى انكشاف الأخرى . العلاقة بين مرحلة وأخرى علاقة عضوية تبادلية كما أن المرحلة الواحدة تحتوي بداخلها على أكثر من خطوة واحدة وسلامة التنفيذ كل لا يمكن فصل أجزائه .

المرحلة الأولى : وعنوانها : البديل :

ومن عنوانها نعرف إنها تعني بالإجراءات الخاصة الخاصة بالشخص الذي سيذهب إلى التجنيد بدلاً من ابن العمدة . وهي تقدم كل المطلوب منه وتنتهي عندما يكون البديل جاهزاً للعمل والدخول في اللعبة . ولا بد وأن تتوفر في البديل الشروط الآتية :

١ ـ أن يقبل الذهـاب إلى التجنيد على إنـه ابن العمدة . وليس بـدلاً منه فقط .

٢ ـ أن يكون من مواليد قريته ، ومن مواليد نفس اليوم الذي ولد فيـه ابن العمدة .

٣ ـ أن يكون معفى من التجنيد حتى لا يؤدي الخدمة مـرتين ـ مرة لنفسـه ومرة لابن العمدة ـ فينكشف الأمر .

٤ ـ أن يقبل تسليمنا الأوراق الدالة على وجوده في العالم مثـل : البطاقـة الشخصيـة ، بطاقـة التجنيد ، تـذكرتـه الإنتخابيـة ، أية كـرنيهات أو اشتراكات مواصلات خـاصة بـه . وحفظ هذه الأوراق لـدينا أو عنـد العمدة في مكان أمين لا تصل إليه يد أي إنسان .

٥ ـ يستحسن أن لا يكون من عائلة كبيرة أو من عائلة صغيرة تربطها صلات القـربى والمصاهـرة مع عـائلة كبيرة . كمـا لا يجب أن تكون لـه أية مصـالح مـع إحدى هـذه العائـلات . وأن كانت لـه مصـالـح ، فمن المرغوب فيه أن تكون مع العمدة مباشرة أو مع أحد حلفـاء العمدة . مع التأكد من عدم وجـود علاقـة من أي نوع كـانت بينه وبين أعـداء العمدة في الناحية كلها .

٦ ـ استخراج شهادة وفاة طبيعية للبديل . ويستحسن أن تكون الوفاة بسبب مرض كان مصاباً به البديل ويعلمه الجميع في البلد . وما دام إنه من الثابت وجود من سيتعاون معنا من مكتب صحة المركز ، نظير أتعابـه التي ستكون صغيرة ، لهذا لن نكتفي بشهادة الوفاء الرسمية الصماء ، سنطلب منه إقراراً شخصياً بصفته يعمل في مكتب الصحة عن ظروف الوفاة يقول فيه : إن البديل مرض فجأة ، ولعدم وجود أطباء في قريته أتوا به إلى مستشفى المركز ، ثم توفى . هناك اشتباه إنه كان مصابـاً بمرض وبائي ، لهذا عملت على جثته الدراسات والأبحاث اللازمة .

ولكي يتم الرجوع للجثة مستقبلاً ومنعاً لإثارة حساسيات الفلاحين البسطاء دفن بالقرب من المستشفى . ومنعاً للقيل والقال ، لم يبلغ أهله بالوفاة لأن مصر العزيزة والغالية تمر بظروف دقيقة ، وإن أعداء مصر يحيطون بها من كل جانب .

٧ ـ استدعاء والد البديل ، وأخذ إيصالات أمانة وكمبيالات عليه وتحرير شيكات بدون رصيد باسمه بمبالغ ضخمة لإستخدامها مستقبلاً كضمان أكيد في اسكاته حتى خروج ابنه من الجيش . وهذا يضمن وقوف والد البديل معنا بشهادته إن انكشف الأمر .

٨ ـ تفهيم البديل إنه أصبح ابن العمدة . وأن يتصرف على هذا الأساس ، مع تعريفه بتاريخ عائلة العمدة وممتلكاته وعلاقاته وأسرار العائلة الدقيقة والتي لا يعرفها أحد غير العمدة حتى لا يشك أحد فيه .

المرحلة الثانية : وعنوانها : الأصلي :

وهي جملة الإجراءات والعمليات الخاصة بابن العمدة . المفروض أن يبعد عن البلد ويترك المدرسة ويشطب من كل مراحل التعليم . إن ظهوره في أي مكان في دائرة المركز أو المحافظة يهدم اللعبة ، سيكون في الجيش أمام الناس وعلى الورق ابتداء من تجنيد البديل . وحبذا لو أجريت له عملية تجميل في وجهه حتى لا يتعرف عليه من يشاهده . إن سفر ابن العمدة خارج البلاد باسم آخر هو الضمان الأكيد وإن رفض العمدة ذلك فيجب اخفاؤه جيداً داخل مصر .

المرحلة الثالثة :

وهي بدون عنوان لأنها تقوم على التبادل والتركيب بين المرحلة رقم ١ والمرحلة رقم ٢ . إن المرحلة الثالثة هي الجزء التنفيذي في العملية كلها . الوصول إلى هذه المرحلة يعني إن كل طرف عرف دوره وفهم المحاذير ، وبقي دور التنفيذ الدقيق لكل المراحل المختلفة . ومن هذه

المرحلة تستخرج بطاقة شخصية باسم ابن العمدة الثلاثي وبصورة البديل ، وبهذه البطاقة يذهب البديل إلى المركز للحصول على بطاقة التجنيد واستمارة السفر ، ويقدم نفسه لمنطقة تجنيد إسكندرية على إنه ابن العمدة . والبطاقة الشخصية التي ستجمع بين الاثنين ـ أحدهما يمنحها اسمه والآخر يعطيها صورته وبصمته ـ يستخرجها لنا رئيس مكتب السجل المدني بالمركز ، واستخراجها أساسي ويترتب عليه الكثير من نجاح العملية . يبقى الاشراف على سفرهما معاً ، البديل إلى منطقة الإسكندرية ومراقبته عن قرب في الأيام الأولى ، حتى لا يخطىء في التصرف ، أي خطأ سيكشف المسألة كلها . وفي الوقت نفسه متابعة سفر ابن العمدة إلى أبعد مكان ممكن ، والتأكد إنه لم يلتحق بأي مكان ولم ينتظم في الدراسة بأي معهد أو مدرسة ولم يدخل طرفاً في أي مشروع تجاري . على أن يستمر الحال هكذا إلى أن تنتهي مدة التجنيد كلها بالسلامة .

المرحلة الرابعة :

ستظل احتمالاً معلقاً في سماء الأمنيات المؤجلة أو في رحم الغيب ، حتى تفرض نفسها بعد وصول اللعبة إلى الذروة ، في اللحظة التي يخبط فيها الحكم يديه ، وينفخ في الصفارة نفخته الأخيرة التي تعلن إنتهاء اللعبة . في هذه اللحظة الحاسمة والخطيرة ، نصل إلى مرحلة جديدة يسمونها في قواعد اللعب : مرحلة إعادة ترتيب المتناقضات . ابن العمدة لا بد وأن يعود إلى البلد كمواطن شريف ، أي بعد تأدية خدمته العسكرية ، في يده شهادة يقول إنه مواطن صالح ، دفع ضريبة الدم للوطن الغالي ، وعلى كتفيه جبال الأوسمة والنياشين التي حصل عليها خلال الخدمة العسكرية . أما البديل فبعد أن يسترد كل الأوراق التي تثبت وجوده على قيد الحياة في عالمنا وهي الأوراق التي ستظل محفوظة لدينا إلى أن تنتهي مدة التجنيد ، أمام البديل ثلاثة طرق : أما أن يعود إلى البلد على أساس إنه كان متطوعاً في الخدمة العسكرية طول فترة تجنيد

الأصلي ، ثم اكتشف صعوبة الحياة في الجيش وإستحالة استمراره كل سنوات العمر في ظل الميري . بعد أنتهاء مدة التطوع الأولى ، رفض التجديد ، فضل حريته الشخصية على احتمالات الترقي لرتب الضباط ، واستجاب لنداء ريف مصر حيث الحب والهدوء والسلام . الطريق الثاني سفره إلى خارج البلاد ، ونحن ملتزمون بتقديم كافة التسهيلات المطلوبة له . الطريق الثالث هو حصول البديل على وظيفة مثل كل الذين يسرحون من الخدمة العسكرية ، عليه فقط أن يقدم لوحدته بيانات غير صحيحة بالنسبة لمكان إقامته ، ليتم التعيين في بلدة أخرى . هنا تثور مشكلة أخرى صغيرة : إن التعيين سيكون باسم ابن العمدة ، كيف يحصل عليه البديل الذي سيعود في هذا الوقت بالذات إلى اسمه الأصلي ؟ وهي مشكلة شديدة البساطة وحلها سهل : أما أن يتنازل ابن العمدة عن الوظيفة لإنسان آخر محتاج إليها ويعاني في سبيل الحصول عليها ، وبهذا يترك الوظيفة رسمياً للبديل . أو نقوم نحن بعمل اللازم ليصبح التعيين باسم البديل . وبهذا يعود كل طرف إلى قواعده سالماً ونكون نحن قد وصلنا إلى النهاية التي يقولون عندنا في مصر مسك الختام .

ثانياً : المشتركون في العملية :

- المتعهد .

٢ - مندوب التجنيد .

٣ - مساعد مندوب التجنيد .

٤ - رئيس مكتب السجل المدني بالمركز .

٥ - مسؤول استخراج البطاقات الشخصية في السجل المدني

٦ - العسكري المكلف بأخذ البصمات للأشخاص الذين يتقدمون بطلبات الحصول على بطاقات .

٧ - التومرجي الذي يحدد فصائل الدم في مكتب الصحة .

٨ ـ الموظف المسؤول عن استخراج شهادات الوفـاة وتصاريـح الدفن في مكتب صحة المركز .

٩ ـ عسكـري المراسلة بين منـدوب التجنيد في المـركز ومنـطقـة تجنيـد الإسكندرية والذي يذهب بالمجندين لتسليمهم .

١٠ ـ ضابط إتصال لملاحظة البديل في أيـامه الأولى في التجنيـد ويتصل بالبديل يومياً لمعرفة التفاصيل منه وإعطائه التعليمات التي تضمن سيره في الـطريق السليم . وأقترح أن يقـوم مندوب التجنيـد بتلك المهمة لسهولة دخوله منطقة التجنيد أن اقتضى الأمر ذلك .

١١ ـ مشرف تكون مهمته متابعة ابن العمدة بعد ذهاب بـديله إلى التجنيد لكي يتأكد بنفسه من تنفيذ الشروط الخاصة بابن العمدة الأصلي .

ثالثاً : تكاليف العملية :

١ ـ ١٠٠ مائة جنيه

أتعـاب استخراج بـطاقة شخصيـة تحمل صـورة البديـل واسم ابن العمدة .

٢ ـ ١٥٠ مائة وخمسون جنيهاً

تكاليف استخراج شهادة وفاة للبديل بتاريخ سابق على يوم تسليمـه نفسه للعسكرية مع التقرير الخاص بظروف الوفاة .

٣ ـ ٢٠ عشرون جنيهاً

مكافأة للمسؤول عن أخذ البصمات في المركز، والذي سيقوم بـأخذ البصمة للبديل الخاصة بالبطاقة الشخصية وبطاقة التجنيد .

٤ ـ ٤٥ خمسة وأربعون جنيهاً

لعسكري المراسلة المسؤول عن أخـذ المجندين والسفـر بهم إلى

الإسكندرية ، خاصة إنه أول مسؤول سيتعامل مع البديل على إنه ابن العمدة .

٥ ـ ٦٠ ستون جنيهاً

لصديق يعمل في منطقة تجنيد الإسكندرية ، لكي يسهل مراقبة البديل في أيامه الأولى ويطمئنه ويدله على الطرق السليمة في التصرف ، وينذرنا إذا ما حدث ما يؤدي إلى انكشاف الأمر ، ويكون وسيلة إتصال بيننا وبينه .

٦ ـ ٣٠٠ ثلاثمائة جنيه

لمندوب التجنيد لكونه في وجه الخطر مباشرة .

٧ ـ ٣٠٠ ثلاثمائة جنيه

للمتعهد لقيامه بالعملية كلها ، وكونه أداة الإتصال بالعمدة .

هوامش :

١ ـ لم يدخل في قائمة الحساب ما سيدفع للبديل وأهله ،حيث إن ذلك خارج الإتفاق . وقد أفهمنا العمدة إن احضار الشاب البديل مسؤوليته وحده .

٢ ـ تكاليف إقامة ابن العمدة بعيداً عن البلد مدة سنوات التجنيد يتحملها والده ، حيث إنها عملية أمنية . وقد تطول ولا أحد يعلم كم يصل عدد سنواتها .

٣ ـ نفقات الإنتقال والإقامة ، ونفقات الإعاشة خلال مراحل تنفيذ العملية لم تدخل في كشف الحساب السابق .

انتهت المذكرة عند هذا الحد

قال لي مندوب التجنيد في البداية إن الحكاية ستتسع . ظلمته لأنني ظننت إنها مناورة منه . الآن أقولها ، لقد فهمت معنى اتساع الموضوع .

انتهت المشاكل المتعلقة بمندوب التجنيد . الطبخة معدة للعمل ، والباقي علي أنا والعمدة . في اليوم التالي ذهبت إلى العمدة بمفردي ، ركبت السيارة ، نزلت على الجسر ، اتجهت إلى الدوار . لم أسأل أحداً لأنني أعرف منزله . في الطريق قابلت الكثير من شباب البلد . حياني بعض من يعرفني من الناس . تفرست في وجوه الشباب بالذات . سألت نفسي : من سيكون البديل ؟ أيهم سيحضر إلى المركز لكي أرسله على إنه ابن العمدة إلى التجنيد ؟ استقبلني العمدة . كان يجلس في الدوار يفصل في قضايا ومشاكل الناس . صافحني بشكل عادي . دهشت من فتور المقابلة . بعد قليل أشار إلى أحد الخفراء ليأخذني لداخل منزله ، صحبني الخفير في احترام زائد ، يبدو إن دخول منزل العمدة تمييز لا يحصل عليه الكثيرون . حضر العمدة بعدي . كان شخصاً آخر ، أخذني بالاحضان وقبلني ، اعتذر لي عن المقابلة الجافة في الدوار ، بسبب وجود الناس . قال لي إنه فعل هذا لكي لا يلفت نظر أحد إليه . تحدثنا . قدمت له الخطة ، زعمت إنها من وضعي . صمت العمدة إلى أن انتهيت من كلامي . دهش الرجل . فكر طويلاً . نظر إلى ضوء صغير يبدو من السماء من خلال نافذة في أعلى الجدار . لعن الزمن الوغد الذي رماني بدون عمل . قال إن مصر ستظل متخلفة ، وهنا ـ وأشار إلي بأصبعه المفرطحة ـ يكمن السبب ، فهي تحول دون مساهمة أكثر أبنائها ذكاء في بناتها . السر هو إن أي مسؤول يخشى الأذكياء وأولاد الناس . إن بقائي بدون عمل مؤامرة ليست في صالح مصر أبداً . قال لي : إنه موافق على التخطيط العام ، وإن كانت له بعض الاعتراضات . أولاً : لا داعي لأخذ الشيكات على والد البديل ، فهو مضمون من كل النواحي ولن يقدم ابنه للقيام بهذه المهمة بالمجان ، ثم إن بينهما قدراً كبيراً من المصالح الهامة والمستمرة . ثانياً : حكاية سفر ابنه إلى بلد بعيد ، لم يكن راغباً في هذا وهنا ناقشني طويلاً ، قال إنه سيصارحني بالأمر ، فالشاب لا يمكن تركه

في مكان بعيد بمفرده لأن أمه لا تستطيع تركه دقيقة واحدة ، إنه وحيدها ، وسيظل وحيدها أبد الدهر ، لظروف لا يمكنه شرحها لي ، لأنها من أسرار بيته وحياته العائلية . إن سافر ابنه وعاش في مكان ما بعيداًعنه لا بد وأن تسافر أمه معه ، وهذا معناه فتح بيت في الغربة ، وتلك مسألة صعبة نفسياً ومادياً وضميرياً . طالت المناقشة ، وأصر كل منا على رأيه . كان اصراري سببه ضمان نجاح العملية . وكان اصراره هو لأسباب عاطفية . أقنعته برأيي . وافق في النهاية على ابعاد ابنه ولم نتفق على المكان الذي سيذهب إليه الشاب مع أمه . قال لي : إنه سيرسل لي البديل ووالده غداً أو بعد غد على الأكثر لكي نبدأ العمل . وصلنا أخيراً إلى النقطة الهامة ، وهي النقود . قال العمدة إنه يستحسن أن أكلف أنا العملية كلها ، وأن آخذ منه المبلغ في الآخر مرة واحدة . فهمت إنه يلمح للضمان ، وتلك مسألة يثيرها الكل ، يقولون عادة من يضمن لي تمام العملية ؟ وكيف أدفع النقود كلها من الآن كلف وسأعطيك ما تطلبه وزيادة في النهاية . في الحالات الأخرى كان هذا المنطق يبدو مقبولاً خاصة عندما تكون التكلفة صغيرة . هذه المرة المبلغ ضخم والأطراف متعددة ، والكل يمد يده قبل القيام بأي خطوة . شرحت له الموقف ، شعرت إنه متردد . قلت له بوضوح : إننا لن نبدأ العمل إلا بعد أن نأخذ مبلغاً تحت الحساب يغطي الخطوات التمهيدية . اشتكى من ارتفاع التكاليف خاصة وإن هناك بعض المهام سيقوم بها ، مثل إحضار البديل ، ولا يعرف أحدكم ما سيكلفه ، وإقامة ابنه في مكان آخر ، وتلك مشكلة أخرى . انتهت المناقشات بموقف مائع ، طلب مني أمهاله يومين حتى يعطيني إشارة البدء . كان ردي عليه حاسماً ، قلت له : ومن المستحسن في هذه الحالة تأجيل زيارة البديل لي ، لأنها لن تقدم أو تؤخر شيئاً بدون النقود . شعرت بالغضب والضيق وهاجت في صدري عواطف ساخنة لدرجة الغليان ضد هذا الكيان غير المفهوم الجالس أمامي ، ولكن بعد أن أحضرت لنا الخادمة صينية

الغداء تحول الرجل بقدرة قادر إلى بحر من الكرم واللطف والمؤانسة . تعجبت من أمر الناس ، خاصة أهل الريف في مصر . ونحن نتناول طعام الغداء قال لي : إنه يشعر إننا أهل وإنه تربطنا قرابة ما منذ زمن بعيد . طلب مني أن أكون في صفه وأن لا أقف في معسكر منفذي العملية ، وأن أحاول اختصار المبلغ ولي عمولة على كل جنيه أختصره من المشتركين معي . وافقته وسعدت فمعنى كلامه إن المسألة ستتم .

وتركته على أن نلتقي بعد يومين .

War in the
Land of Egypt
YUSUF AL-QA'ID

الخفير

في بلدنا مثل يقول : ضربتان في الرأس تسببان ألماً ووجعاً للإنسان ، يجعله لا يعرف يمينه من يساره . يبدو أن هذا المثل قيل في أيام الراحة والعز ، اليوم تكفي نصف ضربة ، أو حتى مجرد لمسة صغيرة ، لكي تجعل الإنسان عاجزاً عن القيام من مكانه . ما حدث لي اليوم يؤكد كلامي . أنا أحتاج لتقديم نفسي لكم . أعتقد أن دوري في الرواية قد حان . أبدأ فصلي من هذه اللحظة التي ستظل حية بداخلي إلى أن تذهب معي إلى القبر ، وتدفن في حضني بداخله رغم معرفتي بضيق قبور الفقراء أمثالنا . اللحظة تبدأ في ذهني بطرقة على الباب ، مجرد طرقة صغيرة عادية ، تحدث في الليلة الواحدة آلاف المرات . بيوت المساكين تغلق أبوابها من ساعة المغربية طلباً للستر من ناحية ، ولأنه لا يتردد عليها أحد من طالبي الخدمات أو أصحاب المصالح من ناحية أخرى . خبط الباب وكانت الدنيا قد ليلت ، وكنت قد تركت الدوار والمخازن التي أحرسها للعمدة وخطفت قدمي لأتعشى . هذه اللحظة تكون الناس يقظة وأصوات الحركة تملأ الدنيا ، والأنوار التي تخرج من الدكاكين والبيوت تعطي الإنسان بعض الونس وتوقف أولاد الليل عند حدهم . وضعت أول لقمة في فمي ، أحسست أنها جرحت زوري من جفافها . لم أضع في فمي ، سواها . أشرت لهم بيدي ليرفعوا الطبلية ، وأن يعملوا لي كوب

شـاي كبير . نـظرت زوجتي إلى نظرة طـويلة وهادئـة مثل ميـاه المصرف الراكد والذي لـم تتحرك فيه نقطة ماء منذ سنوات . فهمت من نظرتها أنه لا يوجد سكر في البيت ، قامت ، ذهبت تستدين قليلاً من السكر من إحدى الجارات ، إلى أن نصرف تمـوين الشهر . حصـل عندي غيظ . الـطرقة على البـاب ذكرتني بـالضربـات التي أصابتني في الفتـرة الأخيرة . أبـدأ بالضربة الأولى ، ورغم أنها كانت متوقعة ومنتظرة إلا أنني اعتبرتها ضربة موجهة لي . إنها الإحالة على المعاش . كنت خفيراً نظامياً عندمـا بلغت السن القانوني . أرسل المركز خطاباً صغيراً بحجم كف اليد من ورقتين . أخذ مني كاتب حجـرة التليفون الختم وغمسـه في الختامـة ووضعه على الورقة . أخذها معه وأعطاني الورقة الأخرى . قال لي أنني من أول الشهر القادم أصبحت في المعاش . فهمت الأمر وأنا واقف أمامه . حـدث هذا لزملائي في السنوات الماضية أكثر من مـرة . لن أخرج بـالليل لأقف في الدرك . ولن أتسلم البندقيـة القديمـة التي أحبها ومعهـا الطلقـات العشر وأدور في حواري البلد والبندقية معلقة في كتفي ، قـاضياً الليـالي الباردة مثل قطعـة الثلج والحراة مثـل بطن الفـرن ، نائمـاً على المصاطب أمـام البيوت صائحاً في سكون اللـيـل الموحش : من هنـاك ؟ تقدم من أنت ؟ تـرى هل سينـاديني الناس بـاللقب الجميل ، يـا شيخ الخفـر ؟ وحشتني متاعب العمل التي كنت أشكو منها لـطوب الأرض ليل نهـار بعد إحـالتي على المعاش ، نقص مرتبي بشكل مخيف ، كنت أتقاضى تسعة جنيهات وربعاً انخفضت إلى أربعة جنيهـات إلا ربعاً . وهـذا انعكس على حياتي ونفقاتي وتعامل الناس معي : البقال من يومها لا يعطيني شكك. آلمتني الإحالة على المعاش لسبب آخر : كان الدور عليَّ في التـرقية إلى شيـخ خفر ، أنا أقدم خفراء البلد ، ولو أحيل شيخ الخفر على المعاش أو فصل أو تـوفي لكنت رقيت شيخاً للخفـراء . أحسست بـالفـراغ والإحتجـاج ، وأصبحت أقضي وقتي كله في الحقل ، سواء كان لدي عمل أم لا . كنت

أفضل المبيت هناك ، لولا أن ذلك كان يكلفنا الكثير ، العشاء يصبح عشاءين . واحد في البيت والآخر في الحقل ، وبراد الشاي يصبح برادين ، والإفطار افطارين . ولهذا كنت لا أتناول طعامي إلا في البيت مهما تأخرت . ذات يوم ، وعند مروري على دوار العمدة ، وكان يوماً شتوياً والعمدة جالس في شمس الشتاء التي تبدو كأغلى أنواع الفاكهة في غير أوانها ، نادى العمدة عليّ ، ذهبت إليه . سألني عن حالي وأولادي وبيتي ، شكوت له سوء الحال . كلفني بحراسة دواره وماشيته ومخازنه والحديقة ، قلت له : أن حراستها من عمل الخفير النوبتجي ، في غرفة التليفون ، قال لي : ذلك صحيح وأنه يحدث منذ حياة جده الأكبر ، ولكن الأحوال تغيرت ، وتلك كلها ممتلكات خاصة بالعمدة والمفروض أن يعين لها خفيراً من حر ماله . رد أحد الجالسين ، الذين لا عمل لهم سوى مسح جوخ العمدة وموافقته في كل ما يقوله ، ومنافقته في كل أمور البلد ، قال أن العمدة يريد مساعدتي ، أنه رجل خير وطيب ، لهذا فهو لا يريد أن يقدم لي إحساناً فيجرحني ، ممتلكاته جزء من زمام البلد ، وهي تدخل رسمياً في درك أحد الخفر والمفروض أن يعتني بها ذلك الخفير بشكل خاص . العمدة رمز الحكومة والحفاظ على هيبته حفاظ على الحكومة نفسها والمفروض ـ أكمل ماسح الجوخ ـ أن أقبل اليد الممدودة لي . في اليوم التالي تسلمت عملي . لم أكن غريباً على بيت العمدة ، ولكني الآن الحارس الخاص لمنزله . لم نتفق على الأجر ، ذهبت للعمل حسب كلام العمدة فقط . عوضني عن الإتفاق على الأجر ، المعاملة السخية والطيبة التي لقيتها من زوجة العمدة الأخيرة ، كانت تقدم لي وجبتي العشاء وإفطار الصباح ، وترسل لي الشاي ، وأحياناً الدخان ، واعتبرت ما تقدمه لي عزاء أيام القحط التي نعيشها .

الليلة ، كانت زوجة العمدة الأخيرة مريضة ، لم ترسل لي الطعام . سألت عنها ، قالوا أنها في السرير ، طلبت لها الشفاء . حضرت إلى

منزلي لاتعشى . أدركت أن مسألة زوجة العمدة ليست مرضاً ، في حياتها سر ما ، في الفترة الأخيرة ، وجهها أصابه إصفرار جعله مثل وجوه الفقراء منا . والعين زائغة والسعال لا يتركها . كانت عليلة بلغتنا ، وإن كنت لم أعرف العلة أو سببها . الناس في بلدنا أما فقراء تداريها الحيطان أو أغنياء لهم أسرارهم الخاصة التي ليس من حقنا معرفتها .

الطرقة على الباب ذكرتني بالضربات ، وإن كانت ضربة عن ضربة تفرق . هناك ضربة أتت في الرأس مباشرة جعلتني أشعر أن حياتي انتهت ، ودفعتني إلى السؤال : متى يأتي الموت لكي يريحني من هذه الحياة ؟ سمعت طلقات الرصاص تنطلق من دوار العمدة ، فرحت . فرح أي إنسان في البلد يعد فرحاً للكل . لم يدر بخاطري أن بلدي ستعرف أياماً عصيبة ، سيكون فرح إنسان ما فيها ، غماً وكرباً لإنسان آخر . صوت الرصاص - يأتي إلي من بيت غني - لم يثر دهشة أحد الأغنياء أفراحهم لا تنتهي ، والفرح يسلمهم إلى فرح آخر ، ولكن عندما حضر ابني ، قرأت في وجهه هما أراه لأول مرة . قبل الحديث عن الهموم . أقدم لك ابني أولاً ، اسمه مصري ، وهو الإبن الوحيد على خمس بنات ، تعلم ، حصل على الإعدادية من المدرسة الموجودة في البلد ، ولما كان تعليمه سيكلفني سكنا في البندر وطعاماً ونفقات ملابس وكتب ، وأنا محتاج لمن يساعدني في الحقل وبيتنا يحتاج لرجل معي ، أيامي ذاهبة ولا بد من وجود رجل بدلاً مني ، اكتفيت بتعليمه حتى الإعدادية . مصري كان مصمماً على إكمال تعليمه ، فهو الأول في المدرسة دائماً ، وأبناء الأغنياء كانوا يحضرون إلى بيتنا الصغير لكي يذاكروا معه . اختلفنا، كاد مصري أن يترك البيت . وصلنا إلى حل وسط ، أن يدخل مصري المدرسة من المنازل ، ويذاكر مع الطلاب الذين يسافرون إلى المدرسة الثانوية في المركز كل يوم رغم هذا نجح مصري ، وكان الأول أيضاً . حضر إليّ

مصـري ، الهموم والمشـاكل تتعـارك على وجهـه . سـألتـه عن الأفـراح والـرغاريـد وطلقات الـرصاص ، قـال لي : هذا أسـود يوم في حيـاتنا ، دهشت. قال: صدر حكم قضائي اليوم بعودة الأرض التي أخذها الإصلاح الزراعي من العمدة ووزعها على الفلاحين ، وإن البوليس سيأخذ الأرض من المنتفعين ويسلمها للعمدة . تصورت أن المسألة تعني تغيير المالك ، سيصبح العمدة بدلاً من الإصلاح الزراعي . ضحك مصـري في مرارة ، أكد لي أن العمدة قال لكل من ذهب ليهنئه أنه لن يتسلم شبراً واحداً من الأرض وعليه مستأجر ولا بد وأن يـأخذ أرضـه بدون مستـأجرين وهـو حر التصـرف فيها بعـد هذا : يـزرعهـا ، يبني عليهـا ، يؤجـرهـا ، يـزرعهـا مناصفة . درت بنـظري على حقلي ، ثـلاثـة أفدنـة ، قطعـة مربعـة من الأرض ، معي منـذ سنوات لا أعـرف عددهـا . تـوقفت بعيني عنـد دوار المـواشي والسـاقيـة التي بينتهـا مشـاركـة مـع جيـراني وشجـر الكـافـور والجازورين الذي يحد الأرض . بدونا ـ أنا ومصري ـ ضعيفين . مصري أكثر ضعفاً مني ، طول عمره وهو أقوى مني . الآن يبـدو مصري ضعيفـاً ضائعاً ، لم أعرف كيف أتصرف . كنت أود أن أبدو أمام مصري رجلاً لا يخاف ، قادراً على التصرف . قلت له أن ما يحكيه كلام مصاطب ، يقوله الذين بلا عمل ولن يستطيع أحد أخذ هذه الأرض منا . أكمل مصـري ، ذلك أمر مفروغ منه ، ولن تتمكن أي قوة في مصر كلهـا من أخذ الأرض منـا . تركني مصـري ، جلس على رأس الحقل ، أنـزل قدميـه في قنـاة المياه . أخذ يرمي حبات الطوب في المياه وينظر لتموجات المياه التي تبدأ دوائر صغيرة تتسع وتصبح دوائر واسعة إلى أن تتكسر على شاطىء القناة . أمـامي عمل يتـطلب إنجازه . نحن في أواخـر الربيـع ، ورائحة الصيف تتسلل إلى الجو والحقول مليئة بالخيرات . هذه أحلى أيام السنة والعمل فيها كثير ، لدرجة أني أتصور في بداية اليوم أن النهار كله لن يتسع لما أود القيام بـه من أعمال . نظرت إلى مصري والحقل ، اكتشفت أني فقـدت

الرغبة في العمل . أخذت الفأس والشرشرة ، خبأتهما تحت شجرة . اتجهت إلى حاصل الساقية ، به بعض المياه الراكدة ، غسلت فيها وجهي وقدمي . تركت وجهي لهواء ساعة الغروب حتى جف . فكرت أن أتوضأ لأصلي ما فاتني من فروض اليوم ، اضطرابي وتشتت عقلي جعلني لا أصلي . في الدوار ، بدت الجاموسة والبقرة والحمار والخرفان كاليتامى . قمت أنا ومصري . عدنا إلى البيت مبكرين عن كل يوم أحسست بالغرابة ، تعودت أن لا أترك الحقل إلا بعد أن تتوه ملامحه في عتمة المساء . خيل إلي أن الأشجار والقنوات والمساحات السمراء التي تبدو من الأرض تعاتبني على تركي لها في هذا الوقت المبكر . أمام بيت العمدة ، مررنا بصعوبة من الزحام . أوقفنا أحد الخفراء ، أصر على تقديم أكواب الشربات لنا ، شربات حمراء تفوح منها رائحة زهور ذقن الباشا . مصري اقترب من الخفير ، أزاحه من طريقنا بيده ، كاد الأمر أن يصل إلى العراك ، ولكن حالة الفرح جعلت الخفير يضحك علينا ، نحن الذين نرفض كرم العمدة . في البيت اتضحت لنا الحكاية ، حضرت مجموعة من الفلاحين مستأجري أرض الإصلاح ، قالوا أنهم سمعوا بصدور حكم ضدنا بيد أن أحداً لم يستدعنا ، حكم غيابي ، نحن لم نستدعِ لأننا لسنا طرفاً في القضية ، العمدة رفع قضية ضد الحكومة ، ما دخلنا ؟ أكد البعض أنه من حقنا استئناف الحكم . قال آخر أن كلامنا سابق لأوانه ، لننتظر حتى يحصل العمدة على صورة الحكم ثم يبدأ إجراءات التنفيذ ، في هذه الحالة نتحرك فوراً بشكل جماعي . قالوا أن يداً واحدة لا يمكن أن تصفق أبداً ، ولا بد من تعاوننا . ولكن فلاحة مات زوجها وتعول أولادها قالت : إن المياه لا يمكن أن تطلع في العالي أبداً وأن الأرض سيأخذها العمدة مهما فعلنا . هاج مصري ، قال أن ذلك لن يحدث أبداً ، سندفع حياتنا ثمناً للأرض . في اليوم التالي لم يكن لأحد في البلد حديث إلا عن حكاية الأرض وعودتها للعمدة ، وفي مثل هذا

الحو تناثرت شائعات كثيرة دارت حول معنى واحد ، العمدة مصر على أخد أرضه .

طرقة على الباب أطارت صوابي ، ثلاثة أيام قضيناها في الخوف والترقب . قالوا لنا يوم الحكومة بسنة ، وصورة الحكم لن تصل إلى العمدة قبل ثلاث سنوات أو أكثر . في اليوم الذي صدر فيه الحكم ، طلب العمدة سيارة مخصوصة ، ركبها ومعه كاتب حجرة التليفون ، وسارا على الطريق الموصل إلى المركز . قال الكل أنه سيحصر بعد قليل وفي يده صورة الحكم لكي ينفد من الغد . جاري أكد لي أنه شاهد العمدة وقت عودته ولم تكن معه صورة الحكم ، بل كان شارداً تائهاً وكأن حبال الهم والنكد قد ركبته . في اليوم الثالث ، أتى صابط البوليس ومعه ثلاثة عساكر يركبون خيل الحكومة البيضاء ، التي يثير دخولها قرانا الخوف في القلوب . جمع الضابط مستأجري الأرض التي تقرر إعادتها للعمدة ، أحضرونا من كل مكان ، قابلنا الضابط في غرفة السلاح بدوار العمدة . قال لنا الضابط بإختصار : صدر حكم بتسليم الأرض التي معنا للعمدة ، فهي أرضه أساساً ولما كانت هذه الأرض وقت الإستيلاء عليها مع العمدة ، وليست مؤجرة لأحد ، فيجب أن تعود له بدون مستأجرين وكل من معه عقد إيجار من العمدة قبل الإستيلاء على الأرض سيظل بها ، أما كل العقود التي حررها الإصلاح الزراعي فهي باطلة ويجب تسليم الأرض للعمدة فوراً . والضابط كرجل بوليس لا ينسى أنه مصري ، وأننا أهله ، ولذلك فقد فضل أن يقابلنا كأهل في جلسة ودية ، لكي يطلب منا هذا الطلب إن سمعنا كلامه فأهلاً وسهلاً ، وإن رفضنا بينخ وبيننا القانون . وهو واضح وصريح وقاطع ، لا بد من عودة الأرض إلى العمدة . وحضرة الضابط سيتوسط لدى العمدة ليرأف بحالنا ، ولن يرضيه أن يتركنا بدون أرض نزرعها ، نحن أهل وحياتنا يظللها الحب لا الكراهية ، والتآخي مكان التنافر . وقف واحد منا وقال : وما مصيرنا نحن وأولادنا ؟ قال له

الضابط : لكم رب ، وبعد الله لكم العمدة ، وأنه سيتولى إبلاغ المسؤولين موقفنا لكي يتصرفوا بشأننا ، ولن تترك مصر أبناءها بدون أرض أو عمل ، مصر تكرم الغرباء ، فما بالك بأبنائها . قال فلاح آخر : هذا ظلم . رد عليه الضابط : إن هناك حكماً قضائياً يجب تنفيذه ، أما عن القضاء أو ظلمه فذلك يتقرر في ساحة القضاء ونحن نعيش ـ والحمد لله ـ عصر سيادة القانون ، ولن يعلو صوت فوق صوت القانون . وعلينا تنفيذ الحكم الصادر ونتظلم منه بالطرق القانونية ولكن بعد تمام التنفيذ ، وبعد هذا فإن صدور حكم لصالحنا يعيد إلينا فوراً ، وهو يتعهد بتنفيذه .

حمدت الله ، مصري غير موجود ، لو كان معنا ما عرفت ما يمكن أن يحدث منه للضابط . تحولت الجلسة إلى عراك وخناقات وبكاء . قال الضابط : إن كل مهمته هي تنفيذ الحكم الصادر ويستحسن تسليم الأرض بالتي هي أحسن وأنه سيمهلنا يومين ، من يسلم أرضه بالذوق كان بها ومن سيرفض سيلجأ الضابط إلى الإجراءات القانونية بما في ذلك الإستيلاء على الأرض بقوة السلاح . حدث هياج بيننا ولكن الضابط تصلب في جلسته ووضع كابه على رأسه ووقف . حياه العساكر الذين حضروا معه والخفراء الذين كانوا يقفون في غرفة السلاح . تركنا وذهب إلى العمدة ، خرجنا ونحن نضرب كفاً بكف . تفرقنا ويبدو أن الضابط أعطانا هذه الفرصة لنختلف : بعضنا أعلن أنه سيهاجر تاركاً مصر بعد أن انتشر الظلم فيها بهذه الصورة ، بأخذون ممن لا يملك ويعطون لمن معه الدنيا بما فيها . البعض قالوا أنه أشرف أن نشتري بثمن الأرض والمواشي أسلحة ونقاوم حتى الحكومة نفسها ، أكد المتحدث كلامه بأن هذا لو حصل في صعيد مصر لما خرج هذا الضابط حياً ، حتى لو كان في حراسة جيش بأكمله . افترقنا دون أن نتفق على أمر ما . حدث هذا وقت الظهر . لم أذهب إلى الحقل . وقت الأصيل حضر مصري بالبهائم ، قضيت الوقت حتى عودته بمفردي ، أروح وأجيء مع الأفكار المضطربة بداخلي . لم

أكن أعـرف ماذا سـأفعل . قلت لنفسي : إن مـا سيمشي على الآخـرين يسري عليّ . ولكن كانت هناك أمور تخصني مع العمدة ، الخفر والذهاب إليـه كل ليلة . قلت لن أذهب حتى أعـرف مـاذا سيفعـل معنـا جميعـاً . شاهدتني زوجتي ساهماً ، قالت إن العمدة قد يترك لي أرضي ، فأنا خفيره الخاص وهو يحبني . صحت فيها ، رفضت كلامها ، وصممت أن أضع يدي في أيدي الآخرين مهما حدث .

وأتت الطرقة على الباب ، كانت عنيفة ، الكلب نائم خلف البـاب مباشرة هب من نومه مذعوراً ، نبح بصوت عال ، وأمسك في خشبة الباب بأسنانه . قمت ، فتحت الباب ، كان الخفير النوبتجي في حجرة التليفون هو الطارق ، قال : العمدة يريدني لأمـر هام . سـاعتها لم يتـوقف عقلي طويلاً أمام المسألـة . لبست مداسي لأذهب معـه . نبهتني زوجتي ، لأن الشـاي طاب . جلس معي الخفيـر ، شاركني في شـرب الشاي . ذهبنـا معاً . تصورت أن العمدة يريدني في عمل أقوم به في أحد حقوله غداً وأنه أرسل في طلبي لكي ينبه عليّ قبل أن ينام مبكراً . وصلت الدوار . وجدت كاتب حجرة التليفون في انتظاري . قال له الخفير الذي كـان معي ، أنه أحضرني للعمدة . قال لي الكاتب : تفضـل بالجلوس ، ممـا أدهشني . أرسل الخفير ليحضر لنا بـراد شاي من منـزل العمدة . أفسـح لي مكانـاً بجـواره على الكنبة العـاليـة . استجـابتي المتـرددة جعلتـه يشـدني بيـده ويجلسني بجواره ، وفي حديثه حام حول ما يريد قوله لي . أكد أن العمدة رجل طيب وأنه يحبني بشكل خاص وأنه قدم آلاف الخدمات لأهل البلد ، ولا يوجد بيت في البلد إلا وقدم العمدة خدمة لأحد من أهله . ولكن العين لا تكره إلا من هو أعلى منها ، وتلك عادة قديمة في مصر . العمدة يقول عني أني كوم وأهل البلد كلهم كوم آخر ، ولهذا أرسل في طلبي الليلة ، لأنه سيطلب مني خدمة بسيطة . وهو على ثقة أني سأقدم الخدمة لأنها في مقدوري . بدأ الأمر يزعجني ، لماذا مثل هذا الكلام الذي يلف ويدور .

منذ أن جئنا إلى الدنيا والعمدة ابن عمدة ومن نسل عمدة أما نحن فقد خلقنا لكي ننكفىء على الفأس العمر كله ، ونموت والقدم مغروس في الطين والظهر قد تقوس من كثرة الإنحناء . العمر كله انحناء . من قبل كان العمدة يشير فقط ونحن ننفذ . أن أي أمر لا يستغرق قوله ثانية واحدة . هذه المرة ، شعرت بالخوف يسري في جسمي مثل دبيب النمل عندما ننام في الحقول وتسرح في أجسامنا كل حشرات الأرض . كدت أقول كلامي هذا للكاتب ولكن استمراره في الحديث جعلني أسكت . حضر العمدة ، وقفت . وجدته يمد يده لي ، سلم عليّ . قلت في نفسي : إن أمراً ما قد حصل . لا بد وأن الحكومة ألغت حكم المحكمة الذي صدر بعودة الأرض إلى العمدة . فرحت وشعرت بشوق للأرض ، تخيلت نفسي وأنا أذهب إليها في الغد ومعي بهائمي . أخذت يد العمدة اللينة والناعمة بين كفي الجافين المليئتين بالشقوق مثل الأرض الشراقي . الخواتم التي تزين أصابعه لها فصوص والفصوص اصطدمت بباطن يدي . أما يد العمدة فقد كانت ثقيلة وسمينة ودافئة وممتلئة باللحم . اقتربت من ظهر يده لكي أقبله ، انغرست شفتي في طيات اللحم . تذكرت أني لم آكل لحماً من الموسم الماضي . تهت وأنا أحسب كم من الشهور مضى على آخر موسم ، لم يتمكن ذهني المتعب من الحساب المعقد للأيام والشهور . ترك العمدة يده لكي أقبلها ، أنه يتصور أن ذلك يسعدنا وهو لهذا يتركنا حتى نشبع من التقبيل . طال تقبيلي . قال العمدة .

ـ أستغفر الله يا ابني .

مد يده ، ربت بها على ظهري ، تركها ، نامت على سلسلة ظهري . يقول لك ثقلها أنها يد من أيام الرخاء الأولى ، وأنها سمنت هكذا لأن يدي وأيادي آلاف مثلي لا يكسوها شيء . خفت أن يكون عظم سلسلة ظهري المدبب كالمسامير والشوك آلم يده . سحب يديه ، اليمين من بين كفي واليسرى من فوق ظهري . اتجه نحو الكنبة . لم أصدق

نفسي عندما وجدته يجلس ويجمع جلبابه الواسع ، والذي يكفي لتفصيل ملابس لي ولأسرتي كلها منه ، ويطلب مني الجلوس بجواره . مددت يدي ، أخذت ذيل جلبابي الضيق على جسمي ، جلست على الأرض بجوار الكنبة الكبيرة التي يجلس عليها العمدة . أقسم برحمة من ماتوا له أن ذلك لن يحدث ، شدني بيده ، أجلسني بجواره . أشار بيده فصرف كل الحاضرين ، لم يبق سواي معه والكاتب ، تتوسطنا صينية عليها براد شاي وثلاثة أكواب كبيرة يلتف حول وسطها أحزمة مذهبة . عندما خرج الحاضرون وصلت لحد الدهشة . كنت خائفاً مما يحدث حولي ، وكنت أود أن يتكلما لكي أستريح من الإنتظار والتساؤلات التي تطن مثل النحل في رأسي . إن التكريم لا يتم لوجه الله تعالى ، وراءه مطلب ما . سعدت عندما أنتهت المجاملات ودخلوا في الموضوع مباشرة . قال الكاتب : الخدمة التي يطلبها مني العمدة صعبة وسهلة ، معقدة وبسيطة في الوقت نفسه ، ولكنها في يدي . فهل أنا على استعداد لأدائها ؟ قلت نحن تحت أمر العمدة . صمت الكاتب ، طلب من العمدة أن يتكلم بنفسه ، حتى أصدق أنه يطلب مني خدمة . تنحنح العمدة . أخرج منديلاً شفافاً كورقة السيجارة له رائحة معطرة ملأت الحجرة ، وبصق فيه وتنحنح من جديد . شعرت أنني أمام رجل يأكل حتى يشبع طول عمره وأن زوره مسدود في هذه اللحظة من كثرة الأكل ولهذا يخرج الصوت محملاً برائحة اللحم والدجاج والسمن والبصل المحروق . اقترب العمدة مني أكثر . سألني عن موضوع الأرض ، ماذا قررت أن أفعل ؟ استراحت نفسي أخيراً . تصورت أني وصلت إلى الهدف من اللف والدوران . قلت له أننا لم نقرر ماذا سنفعل . توقف أمام كلمة أننا ، سألني :

ـ أنتم من ؟

قلت له : أننا الفلاحون الذين سيطردون من الأرض ، ولم نقرر بعد ما سنفعله ، وإن كان أكثرنا يميل إلى مقاومة الضابط بالقوة إن لزم الأمر .

لم يغضب العمدة من كلامي ، ضحك في الخفاء . قال لي : أنه ستكون لي معاملة خاصة بصرف النظر عن الجميع . قلت له : إن الإنسان يربط من لسانه وكلمة الرجل تساوي عمره ، وأنا تشاورت مع الإخوان ولا بد من رجوعي اليهم . قبل أن أكمل قال : أنه سيعاملني معـاملة خاصـة لأن له خدمة عندي ، وهذه المعاملة الخاصة لن تتم بسبب سواد عيني ، وخدمته التي يطلبها مني هي أن يقوم مصري بمهمة بسيطة بدلاً من ابنه الصغير ابن الست الصغيرة التي تقدم لي العشاء والإفطار وأعطف عليها كأنها ابنة من ابنائي وتحبني هي كوالد لها . المهمة التي سيذهب فيها مصري فوائدها لا تحصى ولا تعد . تدخل الكاتب موضحاً أن العمـدة ينتظر مـوافقتي على ذهاب ابني وكل ما في أعمالنا بثمنه وبمجرد الموافقة سندخل في الكلام المفيد ، وسأعرف ما سآخذه من العمدة بالتفصيل . عرفت الحكاية على حلقات وعلى مدى نصف الليل الأول كله . كنت أسمع ثرثرة الليالي في الشارع الرئيسي الـذي يمر بجـوار دوار العمدة ، المنـادي ولعب الأطفال ومراهنات الرجال والباحث عن دجاجة ضائعة أو خروف ضل الطريق أثناء العودة من الحقل ، ومن يسأل عن فلاح عليه دين ومن يشكو خلو الجيب والبيت من مليم واحـد . وسط هذا ، شـربت ما قـالاه لي بهـدوء رشفـة رشفة . قال الكاتب : المهمة المطلوبة من مصري تتم في غمضة عين ، أن يذهب إلى المركز في مشوار ليتسلم أوراقاً هامة بدلاً من ابن العمدة آخر العنقود ، ثم يعود . نفقات الذهاب والعودة ستأخذها من العمدة . أكمل العمدة بنفسه نقطة نسيها الكاتب ، إن مصري سيأخذ الورق ـ غير الهـام والذي لا قيمة له ـ من المركز ويسلمه في الإسكندرية في نفس اليوم ويعود إلى البلد قبل أن تغيب الشمس ، وأن مصري يستطيع عمل هذه الخـدمة البسيطة ويمكنه القيام بما هو أكبر منها ألف مرة . كررت سؤالي عن السر في عدم ذهاب ابن العمدة وما أهمية ذهاب مصري بدلاً منـه . وهنا أتت الضربة الأولى .

مصري سيذهب ـ قال الكاتب ـ على أنه ابن العمدة .

التف الخوف حول قلبي ، سألت عن طبيعة الورق .

ـ ورق تجنيد .

قالها العمدة وهو يشيح بيده ، كأن الأمر لا يستحق مجرد الإهتمام به . قبل أن أستوعب سألني الكاتب أن كنت قد وافقت . أشرت بيدي لرأسي دلالة على الإضطراب الحاصل في ذهني . أشار له العمدة ، وهنا فقط رفع الكاتب الغطاء عن الطبخة وشممت رائحة الحكاية اندفعت الكلمات من فم الكاتب . كان مضطرباً ، ولذا خرجت من فمه نقاط رزاز بيضاء ، استقر بعضها عند ركن فمه وعلى طرف لسانه . اتسعت دائرة الرزاز ، وصلت إلى وجهي وملابسي ، وتاه ذهني في محاولة يائسة للجري وراء الكلمات التي قالها الكاتب . حاولت أكثر من مرة أن أستوقفه وأفهم منه . سرعة تدفقه منعتني . حتى فمي فقدت القدرة على تحريكه ، انفصل الفكان عني . تركت يدي تسقطان بجواري . انزلقت حبة عرق ضخمة تحت ملابسي تسللت من رقبتي إلى صدري ، شعرت بها تجري وسط شعر الصدر متجهة إلى أسفل في سرعة ، وكلما تقدمت في سيرها إزدادت درجة برودتها . قال الكاتب : منذ يومين ورد طلب لابن العمدة ـ الذي هو في منزلة مصري ـ ليذهب إلى الجيش ، بمعنى أصح ليؤدي الخدمة العسكرية . لأسباب وظروف يطول شرحها ، والكلام عنها مثل الهم على القلب ، لا يريد العمدة إرسال ابنه . وهذه الظروف أعرف بعضها فالعمدة يعتبرني من أهل بيته ولهذا أختارني دون سواي لحراسته . بحث العمدة عن كل الحلول . ضاقت الدنيا في وجهه ولا بد وأني أعرف معنى ضيق الدنيا في وجه انسان ، لو ذهب ابن العمدة إلى الجيش لخرب بيته وضاع كل ما بناه . أخيراً عثرنا على حل سهل وبسيط ، أن يذهب شخص آخر بدلاً منه . ولما كان العمدة يعتبرني أحن عليه من أخيه وأن مصري يعد ابنه ، سيذهب مصري إلى التجنيد بدلاً من ابن العمدة . وإن

وافقت فالعمدة على استعداد لكي نتكلم ، سيعطيني كل ما أطلبه وهو قادر على تحقيق المستحيلات . المهم موافقتي على هذا الطلب البسيط .

ـ هل وافقت ؟

أعقب السؤال فترة صمت ثقيلة :

ـ على أي شيء ؟

تساءلت بدوري . نظر كل منهما للآخر . بانت بوادر الغضب على وجه العمدة ، طلب الكاتب منه الهدوء . ببطء فهمت الخدمة البسيطة المطلوبة مني أو بالتحديد من مصري ، ابني الوحيد على كوم البنات ، عليه أن يذهب إلى التجنيد بدلاً من ابن العمدة ، الذي يعد الابن رقم سبعة . استمر الإلحاح من جانبهما لأقول كلمتي . لم أشأ الرفض أو القبول . وعلى طريقتي الخاصة في التصرف في الأمور الصعبة على الذهن ، طلبت منهما مهلة من الوقت حتى أرد عليهما . رفضا المهلة . قال الكاتب : إن كانت المهلة بقصد التشاور أو أخذ رأي أحد ، فإن ذلك سيكون ضاراً للعمدة . ، ما عرضه علي إما أن أرفضه كله أو أقبله كله ، وفي كلا الحالين لا بد من بقاء السر في بئر عميق .

ـ حتى صاحب الشأن .

ـ من ؟

ـ مصري نفسه .

ـ وكيف ؟

قال الكاتب أن معرفة مصري يجب أن تتم على مراحل ، وأن لا يقدم له الأمر مرة واحدة . لا أحد يعرف كيف سيتصرف مصري إزاء الطلب . ابناء هذه الأيام يبدون مثل البحار العميقة . قلت لهم : سأشاور عقلي وأخلو إلى نفسي قليلاً . عرضوا عليّ أن يتركوا لي الدوار . قلت لهم أني أميل إلى تأجيل الرد إلى الغد وسيكون خيراً . لا أعرف لم قلت الجملة الأخيرة ، هذا من أخطر عيوبي ، في بعض الأحيان تخرج من فمي

كلمات لا أفهم ماذا تعنيه جيداً . فرحت ، سأذهب أخيراً ، سيتركونني في حالي . قمت من مكاني . أمسكني العمدة قال لي : الدنيا أخذ وعطاء ومن يقم بعمل ينل جزاءه . وسواء رفضت أم قبلت قدم لي العمدة مكافأتي ، تاركاً قبولي أو رفضي لضميري ولن يرضيه أن أتركه في ورطة دون حل .

سألني : كم فدان من أرض الإصلاح معك ؟

ـ ثلاثة أفدنة .

أكملت أنها محرر بها عقد إيجار من الإصلاح الزراعي ، والعقد مسجل في الجمعية التعاونية الزراعية . ومنذ خمس سنوات ونحن نسمع إن الإصلاح سيملكنا الأرض ، على أن تحتسب قيمة الإيجار من ثمن الأرض . الأيام مرت دون أن يتحقق الحلم ، إلى أن سمعنا الليلة عن مصيبة أخذ الأرض منا . قال الكاتب انتما ـ يقصدني والعمدة ـ أصبحتما أهلاً ، فالخدمة التي قدمتها للعمدة ، تجعل الدم واحداً في العائلتين . ضحكت في سري من الكذب ومسح الجوخ . تذكرت : منذ أيام الطفولة ونحن نعرف أن الدم الذي يجري في عروق العمدة ، دم أزرق في لون السماء الملأى بغيوم الشتاء ، وأن رائحته عطرة ، على عكس دمنا نحن الذين نكمل عشاءنا نوماً ، فهو أحمر زفر ملوث . ربما ظهرت السخرية على ملامح وجهي . استدرك الكاتب موضحاً ، قال أنه صادق عندما قال أن الدم أصبح واحداً . شرح الأمر ، ذهاب مصري بدلاً من ابن العمدة ، يدخل تحت بند ضريبة الدم . وهذا أكبر دليل على محبة أبناء مصر لبعضهم الآن ، والتي لم تحدث من قبل ولا في عصور ما قبل التاريخ . تدخل العمدة :

ـ لن تطرد من الأرض مهما حدث .

كررها العمدة ثلاث مرات . أخرج المصحف المذهب والذي يحتفظ به بين الأوراق ذات العشر جنيهات والتي تملأ حافظة نقوده وتبدو

مثل السكاكين من مدتها . منعته من الحلفان على المصحف . قال أنه بالنسبة لأرضي سيلغى عقد الإيجار والمحرر لي من الإصلاح الزراعي حتى لا يتكلم أحد ، ستبقى الأرض معي وسأزرعها مناصفة بيني وبين العمدة . يقدم هو الأرض ، وأقدم أنا جهدي وعمل أولادي طول العام ونقسم المحصول والتكاليف مناصفة على أن يخصم من المحاصيل ايجار الأرض ، يأخذه العمدة . والإيجار ليس سنوياً كما تفعل الدنيا كلها ولكن حسب الزرعة ويقدر على أساس نوع الزراعة ، فإيجار زرعة قطن لن يتساوى مع زرعة برسيم . استطرد العمدة في الكلام ، سنحسب ما ستأخذه : فدان الأرض إن زرعه فلاح ماهر وابتعد عن الزرعات التقليدية ، وأغلق أذنه دون الكلام الفاضي عن الإقتصاد القومي ومصالح البلاد والتصدير والخطط التي لا تنتهي ورفض تنفيذ نظام الدورة الزراعية ، الفدان الواحد يعطي ألف جنيه في السنة إن كان مزروعاً حدائق ، أما الزراعات العادية فلن يقل عائدها عن ستمائة جنيهاً في السنة . سأقلل الرقم ، لنتصور أن الفدان يعطي أربعمائة جنيه فقط ، سأضع في الإعتبار الآفات والعطش وعين الحسود والرشاوي وتسهيل الأمور ، أي أنك ستحصل على مائتي جنيه من الفدان ، الثلاثة افدنة ستعطيك ستمائة جنيه . في مدة التجنيد تحصل على ألف وثمانمائة جنيه أو ما يقارب من الألفين ولن أدخل في الحساب المواشي والحطب والطعام فنحن أهل . إن نجحت التجربة وكنت ماهراً في العمل ، من الممكن أعطاؤك مساحات أخرى من الأرض مستقبلاً . هذا الإتفاق لن يدون في أوراق وسيبقى سراً بيننا ، وسيقول العمدة أني أعمل في أرضه بالأجر . ومن ناحية أخرى ـ ما زال العمدة هو الذي يتكلم ـ حراسة الدوار مستمرة بأجر ثلاثة جنيهات في الشهر بواقع عشرة قروش عن كل ليلة وهو يعرف أن الدنيا أمان ولن يجرؤ أحد على الإقتراب من ممتلكات العمدة ، وهذا معناه أني آخذ ثلاثة جنيهات شهرياً نظير نومي في دوار العمدة بدلاً من النوم في منزلي . ولكنه

وبعد الخدمة العظيمة التي سأقدمها له ، قرر رفع المبلغ إلى الضعف ، عشرون قرشاً في اليوم . وستة جنيهات في الشهر تساوي المعاش الذي أحصل عليه من الحكومة . بحسبة بسيطة ، دخلي أثني عشر جنيهاً في اليوم الأول من كل شهر وهو أكبر من مرتب المدرس الإلزامي ووكيل مكتب البريد والمشرف الزراعي في الجمعية التعاونية الزراعية ، وأقل من مرتب حضـرة الضابط المـوجـود في النقـطة الثابتـة ليتحكم في عبـاد الله المخلصين . لتكمل الحسبة ـ وهو لا يحسدني ، ومن يحسد هم أصحاب العيون الفارغة ـ سيدخل بيتي اثنان وسبعون جنيهاً في السنة ، أي مائتـان وستة عشر جنيهاً في ثلاث سنوات . لو أضفنـا المبلغ العائـد من الأرض يصل المبلغ إلى ألفين وستة عشر جنيهاً . مصري في الجيش مرتبه ثلاثة جنيهات وعشرة قروش في الشهر . من الممكن عمل لعبة ونحصـل على بدل تعيين وبدل ملابس بعد تحويله إلى المخابـرات الحربيـة بواسـطة ، يصل المرتب إلى خمسة عشـر جنيهاً شهـرياً ، بخـلاف الطعـام وركوب المواصلات بالمجان وقضاء مصالحـه ومصالـح العائلة ، من المنتـظر أن يحصل على مائة وثمانين جنيهاً سنوياً ، أي خمسمائة وأربعين جنيهاً خلال المدة . عملية جمع بسيطة وتجد أنك حصلت على ألفين وخمسمائة وستة وخمسين جنيهـاً . نحن الآن في أواخر شهـر يـونيـو سنـة ٧٣ . إن سلم مصري نفسه في أول يوليو يخرج من الخدمة في أول يوليو ١٩٧٦ ، وهي فترة قصيرة في حياة الناس تمر دون أن يدري أحـد كيف مرت ، غمضـة عين قصيرة . وإن لم يخرج مصري من الجيش في هذا التاريخ قد تستبقيه القوات المسلحة وابتداء من ١٩٧٦/٧/١ يصرف له الراتب العالي ، وهو مبلغ لا يقل عن عشرين جنيهاً ويصل إلى الأربعين في أحوال كثيرة ، وهو يعتمد على الوساطة ورضى القـواد وشطارة المجنـد وقدرتـه في الحصول على أكبر قدر من الشرائط والأوسمة والنياشين ، ويصرف هذا المرتب إلى أن يتم تسريحه من الخدمة . في يـوم التسريـح يقوم قـائد وحـدة مصري

بعرض قائمة عليه ، يقبل أو يرفض منها ما يشاء بحريته التامة . العرض الأول : أما أن يبقى في الجيش ويصبح مجدداً وهو أحسن درجة من المتطوع ومرتبه لا يقل عن الخمسين جنيهاً وبعد خمس سنوات يصل إلى رتبة الضابط ، يبدأ برتبة ملازم ، مصري صغير في العمر ، وهذا معناه أنه سيحال إلى المعاش برتبة لواء ، نفس رتبة حكمدار الأمن في المحافظة ، هل تتصور حدوث هذا ؟ أنه أكبر من الأحلام . إن رفض مصري البقاء في الجيش ـ وهو حر في ذلك ـ يحصل على خطاب رسمي من هيئة التنظيم والإدارة بالقيادة العامة للقوات المسلحة موجه إلى المكان الذي يرغب في الحصول على وظيفة مدنية فيه . مصري ابن الأرض الطيبة سيرفض كل المناصب التي ستعرض عليه في المدن ، لا بد وأن يرفض أن يكون رئيساً لمدينة أو وكيلاً للنيابة أو مهندساً أو دكتوراً . أعرف أنه يفضل أن يكون معلماً في المدرسة الإبتدائية ، بالتحديد في مدرسة البلد ، حتى يحمل نور العلم إلى أبناء البلد الفقراء المساكين . لقد اكتوى مصري بنار الحرمان من التعليم ، ولهذا ستحول إلى جسر يحمل النور لكل الناس . تساءل العمدة : كم تساوي الوظيفة الأميرية الحكومية . لم أرد . الفم جاف وضربات القلب لها صوت واضح على جدار الصدر الداخلي .

ـ تساوي خمسين فداناً .

الذي رد كان الكاتب . أكمل العمدة : ثمن فدان الأرض ألفان من الجنيهات ، هذا بخلاف خلو الرجل وهو يساوي ثمن نصف فدان . الوظيفة تعني دخول مائة ألف جنيه للبيت . طلب مني التفكير فيمن منا قدم خدمات للآخر . اعترض الكاتب على الطلب ، قال أنه ليس هناك فارق ، المطلوب هو المصلحة العامة لنا وللبلد ولمصر أم الكل . صمتنا على غير انتظار . اقترب مني الكاتب ، سألني هل شاهدت ليلة القدر في رمضان الماضي ؟ إن كنت قد شاهدتها فأمري مفهوم ، وإن لم يكن قد حدث فلا بد وأن معجزة ما قد وقعت لي . ما حكاه العمدة يدخل بند المعجزات ،

فهي أمنيات لا يجرؤ بشر على الحلم بها وكونها تحدث مرة واحـدة ، أو بمعنى أصح بضربة واحدة ، فذلك أمر لا يصدقه انسان . قلت لـه : لم يخطر على بالي أن ليلة القدر لها علاقة بنا نحن الفقراء . من أيام جدودنا الأوائل والحظ وليف أولاد الناس والأغنياء ومن هم في غير حاجة إليه ، أما نحن . اقترب مني الكاتب ، طلب فتح فمي ورفع شفتي العليا ، نظر في أسنـاني ، رفـع وحهي ليـرى جيـداً . قـال أن اسنـاني ليست من النـوع المحـظوظ ، في مقـدمـة الفم تكـون هنـاك مسـافـة واسعـة بين السنتين الأمـاميتين ، وهذه الفجـوة إذا ولد الإنسـان بها فهي دليـل سعد لا يمكن وصفـه . بدت الحيـرة على وجه الكـاتب ولكن العمدة أنقـذه من الحيرة عندما ضرب فخذي بيده ، ضربة أوجعتني لدرجة الدوخان . قال إن هذه الأوصـاف تنطبق على أسنـان مصري . ذكـرني أنه قـال لي منذ سنـوات ومصري يخطو الخطوات الأولى إن هذا الطفل مسعد ، أقسم أنه قال لي يومها إن حظه تحت قدميه . صحح الكاتب :

ـ سيادتك قلت قدم السعد .

ـ فعلاً قدم السعد .

لا أذكر الحديث ولكني متأكد أن في فم مصري فلجة بين أسنانه وإن الكثيرين قالوا أنه ولد مسعد . قمت مستأذناً . قال العمدة : إنه لا يستطيع أن أخرج من منزلـه بدون عشـاء . صفق بيديـه . خرج الكـاتب ليتعجل العشاء من الداخـل . أحمد الله ، أني استـطعت حكايـة الكلام الصعب والمعقد الذي سبق ، فهو كلام غريب عليّ ، وفيه أرقام ضخمة لم تدخل دائرة حياتي من قبل ، وكنت أشك في مقـدرتي على روايتها . تـرى هل وفقت ؟ لا أعتقد . ولكني حكيت ما أعرفه جيداً وهذا يكفي . حضـرت الخادمة وعلى رأسها صينية نحاسية صفراء ضخمة ، فوقها مفرش من النوع الذي لا أراه سوى في مآتم الأغنياء . رفع العمدة المفرش ، خرج البخار من الأطبـاق والأواني ، ورأيت قـدمي أوزة أو ديـك رومي تـرتفعـان في

الهواء ، لونهما أحمر . جرى لعابي وتحركت مصاريني وشعرت أن بطني باتساع الترعة التي تروى حقلي ، وأني لم أتناول طعاماً منذ آلاف السنين . شكل الصينية جعلني أدرك أن الطعام لم يقدم لنا بالصدفة ، أنها وليمة معدة من قبل . جلست وفي مواجهتي العمدة ، وبجانبي الكاتب . وقف بالقرب منا خفير ، زميل سابق لي ، بيده قلة وكوب ماء وفوطة . فرحت بالطعام الذي لم أكن أتوقعه ، ولم يوضع أمامي مثله من قبل . في بعض المناسبات كنت أحمل هذه الصينية بعد أن يأكل ضيوف العمدة . وفي المسافة بين الدوار ومنزله أقف وراء باب أو بجوار حائط ، آكل بقايا الطعام أو أخفيها في مكان أمين وآخذها معي إلى بيتي . نطق العمدة بإسم الله بصوت عال، وامتدت الأيادي . شاهدت شيئاً مثل المذراة التي نذري بها القمح وإن كانت صغيرة جداً ومن المعدن ، والمذراة من الخشب ، يقولون عنه الشوكة . أما السكاكين والملاعق فأعرفها ، عندي في البيت سكين من عمر زواجي ، وملاعق من الخشب صنعها لنا نجار عندما تزوجت أم مصري مع الصندوق والطبلية . احترت هل آكل بيدي ؟ أمسك بالشوكة والسكين ، وفصل قطعة من لحم الأوزة أو الديك الرومي . خفت : هل أمد يدي ؟ قد يغضب العمدة . تعكر مزاجي ، تمنيت لو أنهم أعطوني نصيبي من الأكل وأكلته بمفردي وبدون هذه الأدوات التي كرهتها لدرجة الرغبة في رميها من النافذة . ركنت الشوكة والسكين ، أمسكت بالملعقة . اقتصر طعامي على ما يؤكل بالملعقة فقط : الشوربة والأرز والخضار والسلاطة . العمدة كان بينه وبين أنواع الطعام معرفة قديمة ، ألفة عمرها آلاف السنين ، علاقة حب افتقدها أنا . أقبل على الطعام . بدت ملامح وجهه ، وهو يحشو فمه بقطع اللحم ، مستريحة . كان يبدو أنه يفعل أحب شيء إلى نفسه في العالم . بعد تناول الطعام استأذنت . أعطاني العمدة مهلة يومين لأرد عليه . ذكرني الكاتب بضرورة معرفة مصري الأمر على درجات . وعدتهم خيراً . خرجت . في سيري وجدت

صعـوبة في رفـع قدمي عن الأرض . انحنى ظهـري واقتـرب وجهي من الأرض . لم أعد إلى البيت . أتجهت إلى مخازن العمـدة . تعجبت من أمـر مصري ، من خـلاله وبسبب حكـاياتـه عرفت أحـوال الدنيـا . أيـام طفولته ، لم أعرف عن الدنيا سوى اللقمة الجافة التي كنت أطلب من الله أن يديمها عليّ . كنت أقبل وجه اللقمة وظهرهـا قبل وضعهـا في فمي . وفي الليل ، ذلك المدى الطويل من الساعات المظلمة البطيئة ، لا يكون لي طلب سوى اغماض عيني . في الصباح أذهب إلى السلاحليك ، أسلم البندقية ، أدعو في سري أن لا يراني العمدة . لو تصادف ورآني يأخذني أعمل في أرضه الواسعة مسافة النهـار كله . طول عمـري وأنا أعـاني من الجوع : الجوع إلى النوم ، والجوع إلى اللقمة ، والجوع إلى الهـدمة ، والجوع إلى الراحة ، العمر كله جوع . حاولت صـرف ذهني عن التفكير في الأمر . كان ذلك مستحيلاً . هل أقبل ذهاب مصري إلى الجيش بدلاً من ابن العمدة ؟

ـ مستحيل

فوجئت بالكلمة تخرج من فمي . ولكن الكلمة لم تكن بقادرة على تبديد خوفي على مصري . من لحـظة خروجي من بيت العمـدة ، استقر الخوف بداخلي وانتهى الأمـر . قلت لأتعب نفسي الآن وستأتي اللحـظة التي أغمض فيها عيني وأشد البطانية المتآكلة والمخرمة مثل الغربال على وجهي . وتعال يا نـوم . وأصدر أصـوات النوم مثـل كل النـاس ، الذين أسمعهم بالليل ، وأنا في الدرك . للنوم رائحة أشمها . النوم يقسم الناس إلى نوعين ، نوع يشبع من النوم ونوع آخر محروم من النوم . نوم الأغنياء يبدو أكثر عمقاً أثناء مروري على سرايات أولاد الناس بالليل ، أخـاف أن تصحيهم خطواتي . صحيح أنني هنا لحمايتهم من أولاد الكلب ، ولكن يجب ألا أوقظهم . هكذا كان حالي أيام الخدمة . قلت بعد المعاش أنام نـوماً لا نهـاية لـه . وخرجت . أيـام قليلة وعدت للخفـر مرة أخـرى عند

العمدة . وأتت حكاية مصري وطيرت بقايا النوم من عيني ، وهذا ما ترك آثاره الواضحة على ملامح وجهي . هل قلت وجهي ؟ إذن لأقدم لك هذا الوجه . في وجهي أكثر من سنطة ، عيناي حمراوان على الدوام . من بعيد ترى بياض العينين لونه أحمر . والجفون بلا رموش ، ضاعت في ليالي السهاد الطويلة . أنفي مثل صنوبر المياه المركب بجوار بيتنا والذي لا ينزل مه الماء منذ أن ركبوه .

ضربة على الباب جعلتني أقول ، ليرتاح الناس إذن . كان الكل يتكلم عن مصري . كيف يتفوق ابن رجل فقير ؟ من أين يأتيه الذكاء ؟ عمن ورث العقل ؟ قالت لي أم مصري من أيام ، أن الكعكة في يد اليتيم تبدو أمراً عجيباً . مصري حكايته غريبة . بعد حصوله على الشهادة الإعدادية احترت . التعليم أحسن من أي طريق آخر . أنها أمنية قديمة أن يدخل ابني منزلنا ذات يوم وهو أفندي مثل كل المتعلمين . مصري كان تلميذاً ناجحاً . ذاع صيته في البلد . هو الأول دائماً على فصله ، بل وعلى المدرسة كلها . من يومه وهو الألفة ، حتى وهو في التعليم الإلزامي . كان تفوقه السبب في أن كثيراً من الأكابر جاؤوا إلي ، وطرقوا بابي ، ورجوني أن يذاكر مصري مع أبنائهم ، حتى يضمنوا لهم النجاح . أيامها قال الناس في تفسير حدوتة مصري ، إن الفقراء أذكياء والأغنياء أغبياء . لم يدخل عقلي هذا الكلام . الغني هو الذي يملك أن يريد وأن يحقق إرادته . يملك الغني أن يكون ذكياً ، أمواله قادرة على شراء أي كمية من الذكاء يريدها . يوم حصول مصري على الإعدادية نشأت مشكلة ، المدرسة الثانوية لا توجد إلا في المركز والمدارس الأخرى ، مثل الصناعة والزراعة والمعلمين مكانها في المديرية ، المدينة الكبيرة والتي يوجد بها الحكمدار والمحافظ . اختلفت مع مصري . كان يتمنى دخول المدرسة الثانوية ، القسم الأدبي ، ويدخل الجامعة ، ويعمل مدرساً في الجامعة نفسها بعد عمر طويل ، بإذن الله . أما أنا ، أحسن

وظيفة في نظري في العالم كله ، أن يكون مدرساً إلزامياً في المدرسة الإبتدائية في بلدنا . رفض مصري . تكلم عن التعليم العالي وعن التعليم المتوسط . قال أنه يود تحقيق ما أطلبه ، سيكون مدرساً . ولكن بعد تخرجه من كلية الحقوق أو الآداب ، وإن كان يفضل الأولى ، يومها ، نظرت إلى مصري في عجب ودهشة وعدم فهم . تحيرت . متى عرف مصري كل هذا ؟ وافقته على تحقيق أحلام عمره . لكني أكتشفت أن إدخال مصري مدرسة بعيدة عن البلد أمر مستحيل ، مطلوب له سكن ، والسكن يحتاج إلى فرش ، وأن تكون فيه مياه ونور ، ولن يستطيع مصري الذهاب إلى مدارس البندر إلا بملابس غالية . وسيحتاج لطعامه وأجرة سفره إلى البندر والعودة كل أسبوع مرة . وأثمان الكراسات والكتب والأقلام . أنا رجل فقير ، من اليد إلى الفم ، صحيح أني أزرع ثلاث أفدنة ، ولي مرتب خفير وعندي رأسان من الماشية شركة. ولكني كنت مسؤولاً طوال السنوات التي مرت عن إطعام عشرة أفواه مفتوحة كل يوم تطلب الطعام والكساء ، مصري وخمس أخوات بنات، وأم الأولاد وأمي وحماتي . من أين لي المال الذي يفتح بيتاً جديداً في البنادر الغالية ، التي يسرقون فيها الكحل من العين ويبيعون الماء والهواء . كان جهدي ضعيفاً . اهتم الناس في البلد بأمر مصري . كلمني أكثر من رجل ، طلب مني إكمال تعليمه في البنادر قلت للناس: العين بصيرة واليد قصيرة. ماذا أفعل ؟ غضب الناس . قالوا لا حول ولا قوة إلا الله . الدنيا غير مفهومة ، تعطي الحلق لمن لا أذن له ، لحكمة لا يعرفها إلا الله وحده . ناديت مصري ، كما في الحقل . قلت له : أنت الإبن الوحيد على خمس بنات لا أستطيع الإنفاق عليك في البنادر . عندي ثلاثة أفدنة إيجار سنمتلكها ذات يوم . والفدان يساوي وظيفة ثابتة . صحيح أن هذه الأفدنة الآن بالإيجار . ولكني واثق أننا سنمتلكها ذات يوم ، وهذا اليوم ليس ببعيد . انتظرناه أكثر من عشرين سنة ، وهو آت والأفدنة ستكون لمصري وحده .

أخـواته البنـات ليس لهم هدف سـوى الزواج . أمـا الأرض فلمصـري ، ستعـوض الأرض التعليم . وهيـا نبحث عن بنت الحـلال ليكمـل نصف الدين . ونبني العش الصغير ، عش الفقـراء . انتهيت من كلامي . رفـع مصري وجهه إليّ . قبل كلامه ، أدركت أنه كبر عشر سنوات في اللحظات التي استغرقها كلامي . كان غاضباً . كـز على أسنانـه . عيناه أصـابتهما غرغرة دموع . سمعت خروشة اصطدام اسنانه مع بعضها البعض . قال أنه سيكمل تعليمه بأي وسيلة . فهو لا يعرف المستحيل وهو لم يخلق لفلاحة أرض لا يمتلكها . سيكمل تعليمه بنظام المنازل .

ـ منازل ؟!

تسـاءلت ، رده علي جعلني أدرك أن مساحـات واسعـة من الأرض والبحار ، تفصل بيننا . شرح لي ، أنه يمكنه الإلتحاق بالمدرسة الثانويـة في المركز من المنزل ويبقى هنا . حيث يذاكر ويعتمد على نفسه ويدخل الإمتحان في آخر السنة. وهو يضمن النجاح في السنوات الثلاث من الآن.

لا أعرف لماذا أحكي هذا الكلام أكثر من مرة الآن ، وأنا واقف في حراسة ممتلكات العمدة ، ومعي بندقية العمدة التي اشتراها ورخصها من أجلي وسلمها لي . حقيقة أنا أحاول الهروب من موضوع مصري ، ولكن ذلك مستحيل . من البداية كنت أميـل إلى رفض الحكايـة كلها . الـدنيا وبكل ما فيها لا تساوي التراب الذي يسيـر عليه مصـري ، ولكن عروض العمـدة وما وعـدني به ، جعلت رفض المـوضوع ليس أمـراً سهـلاً كمـا تصـورت ، خـاصـة الأرض . سمعت بـالأمس أن الأرض رجعت إلى أصحابها المـلاك القدامى في أكثـر من مكان ، وأن أرض العمـدة ستعاد إليه ، سواء رضينـا أم رفضنا . كنت جـائعاً ، ومـا قالـه العمدة لي قـدم لفمـي لقمة أكبر من أفواه أسرتي كلهـا مجتمعة . ولهـذا ترددت والتـردد جعلني أعجب من نفسي . في اللحظة التي كان يكلمني فيها العمدة كان رفضي قـاطعاً . ولكن بعـد أن أخذ الـذهن وأعطى تـرددت . أتى الليـل

فأعطى هذا التردد أكثر من معنى . وفي الليالي التي أتت بعد هذا ، لم يداعب النوم جفني أبداً . كان يبدو حلماً . وزارتني يقظة غريبة ، لم تحدث لي من قبل . وبدا لي الليل طويلاً وبلا نهاية ، وكلما اقتربت ساعة الفجر الرمادية الموحشة كنت أشعر باقترابي من قراري الخاص . ووقت الفجر ينزل على هدوء لا طعم له ، وسكينة غريبة . أذهب إلى المسجد ، أتوضأ ، أصلي ، أتعب من التفكير ، أقرر استشارة أحد . خوفي من الفضيحة ومن كلام الناس يجعلني أحتفظ بالأمر داخلي . أعود أتسلم الدوار ومخازن العمدة . هذا الصباح ، استغرق التسليم ، وقتاً طويلاً . أخذت الطريق إلى بيتي . وهنا أصل إلى أهم ما في حكايتي كلها . ماذا دار بيني وبين مصري ، بعد عودتي إلى منزلي في ذلك الصباح الرهيب . أطلب عذركم ، أعرف إن هذا هو أهم ما تطلبونه مني . ولكني لن أحكيه مهما تكن الظروف . لا أقدر ، لا أستطيع ، مجرد الكلام صعب عليّ . كيف أخون مصري وأتكلم ؟ قد تغضبون مني ، وتضربون كفاً بكف ، وتقولون أني ضحكت عليكم ، وحكيت ما أود حكايته ، وعند الجزء الهام هربت منكم . ما حدث بيني وبين مصري في ذلك الصباح المفجع ليس سراً ، اعرفوه بأي وسيلة كانت . ولكنكم لن تعرفوه مني . أحاول الآن ذكّر آخر المعالي التي وردت على ذهني بعد أن أكملت حكاية مصري . في كل مرة أذهب إلى المسجد ، يقول الإمام : لو أطلعتم على الغيب لأخترتم الواقع . وكلما وقع حادث في البلد ، يقولون • ربنا لا نسألك رد القضاء بل اللطف فيه . وعندما تحل الكوارث ويموت الناس وتحترق البيوت وتغرق المحاصيل ، يقولون وهم ينظرون ناحية السماء : قضاء أخف من قضاء .

من قبل كنت أعتقد أن هذا الكلام صحيح ، ولكني ، وبعد المصيبة التي وقعت لي ، أقول بملء الفم : أنني لو كنت قد اطلعت على الغيب ، لما كنت اخترت ما حصل لي أبداً .

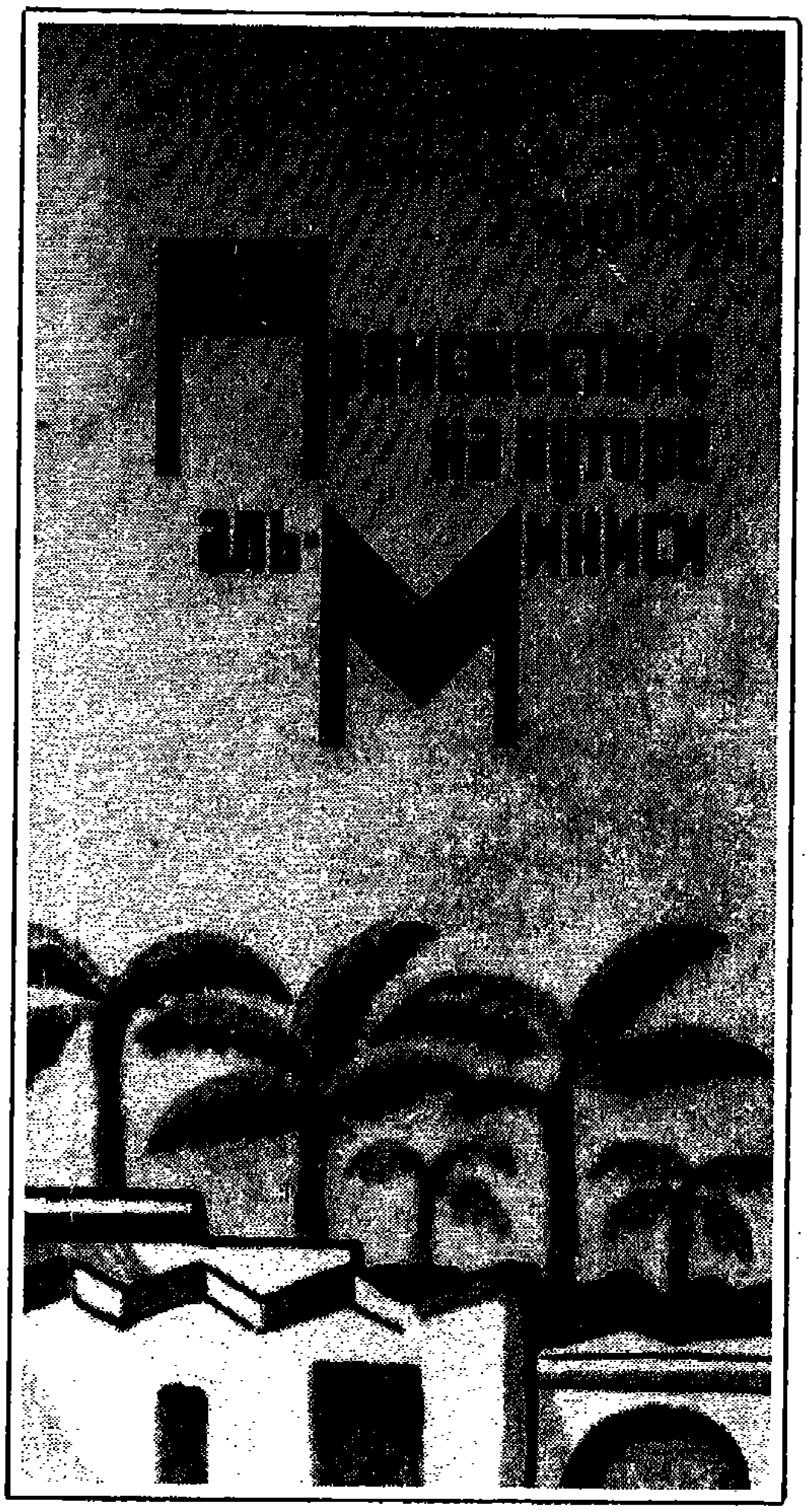

الصديق

الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الإثنين
٢٢ أكتوبر ١٩٧٣
١٢ بابة ١٦٩٠
الموافق ٢٦ رمضان ١٣٩٣

ليت لي براعة كل كتاب القصة جميعاً ، منذ عرف فن الرواية وحتى هذه اللحظة ، لكي أوفق في القيام بتلك المهمة الصعبة على النفس ، أقصد سرد الجزء الخاص بي في هذه القصة الحزينة والغريبة . عموماً ، هناك قصة فرعية ، أنقذ بها الموقف كما يقولون . أكتب اليكم في لحظة هامة . الثانية والنصف من بعد ظهر الاثنين ٢٢ أكتوبر ، وهذا التوقيت يقول أن الوقت المتاح لم يكن يكفي أبداً . كان عمره أربعاً وعشرين سنة ، وأربعة أشهر وتسعة أيام ، هل تكفي ؟ لا أعتقد . ترى لماذا أبدأ حكايتي بكل هذه الفوازير والألغاز ؟ لأزيد الأمر وضوحاً . لي العذر في الغموض واللف والدوران . خوفي ضخم من انصرافكم عن قراءة فصلي ، خاصة وأن ما سأحكيه لن يتعدى مشهداً واحداً قصيراً . وللحقيقة فهو مشهد مقبض وحزين . وأنتم تعيشون زمن النصر والضحك السعيد والفرح بلا حدود في بر مصر ، أنتم أهل السعادة التي لم يرها الأجداد ولن يحظى بها الأحفاد ، فهل تقبلون على حكايتي ؟ إذن لأقدم لكم المشهد

من أوله . أجلس الآن في الصندوق الخلفي لعربة سوداء اللون وإن كانت تبدو رمادية من أثر الشمس وتأثيرها على اللون الأسود . مكتوب عليها من الخارج على لوحة بلون رمال الصحراء ، رقماً تحته كلمة : الجيش . أمامي صندوق خشبي بداخله مصري . في كابينة السيارة السائق وهو جندي ، وبجواره مساعد مريض ، وبينهما جندي جريح وجدناه على الطريق . خلفنا مدينة السويس . ونحن نتجه إلى القاهرة . والإرسالية متحركة بهدف تسليم جثمان مصري ، وإحضار إرسالية من الأدوية ، من المستودع الرئيسي للخدمات الطبية . عيناي لا تريان سوى الصندوق الذي أحاول تثبيته حتى لا يتحرك مع رجرجات العربة . في مواجهتي مباشرة نافذة صغيرة ، أتابع منها المرئيات ، وتعكس لي مدى سرعة العربة . أحاول معرفة علامات الطريق لأحسب كم بقي من الوقت حتى نصل إلى القاهرة . بجواري راديو صغير تنبعث منه خروشة ، وبين الحين والآخر ، يصلني الإرسال واضحاً . ثم لا تلبث أن تتوه الأحرف والكلمات حسب اتجاه العربة . استشهد مصري قبل ظهر الأمس . ما زلت أتصور أنه في اغفاءة طويلة ، وأنه ما يزال حياً ، وإن دفئاً ما ينبعث من جثمانه ، ويصل إلى عبر الشقوق الموجودة في الصندوق . عندما حملناه ، لكي نضعه في الصندوق ، كان الجسد طرياً ، ولم يكن قد تيبس بعد ، وخيل إلى أن الدم يجري في العروق وأن القلب ينبض . قلت ، إن هموم الفترة الأخيرة أوصلته إلى حالة إغماء سرعان ما تنتهي . وحتى الآن ، ومستقبلاً ، لن أصدق أن مصري أستشهد ، رغم أن جثمانه بين يدي . أنا معذور في هذا . للإستشهاد في ميدان القتال رائحة خاصة ، شممتها آلاف المرات في الأيام الأخيرة . هذه رائحة لا تصل إلى من مصري ، ولا أعتقد أنها ستصل إليّ في يوم من الأيام ، حتى لو بقيت معه هكذا شهوراً طويلة . كان الوقت ثقيلاً يتحرك ببطء إلى درجة الملل . فكرت أن أكلم مصري ، أتأكد من حقيقة استشهاده ولكن الصندوق كان مغلقاً بشكل محكم .

اقتربت منه ، نظرت من بعض الشقوق ، لم تكن هناك آية حركة تذكرت الراديو الموضوع بجواري . أمسكت به . عبثت في أزراره . حاولت الاستماع إلى أي صوت . وعندما اعتدلت العربة على الطريق في اتجاه جديد ، وصلني صوته واضحاً وأتى صوت المذيع وقوراً مهذباً متجهماً :

ـ أذاعت رئاسة الجمهورية بياناً إلى الأمة ، تعلن فيه موافقة مصر على وقف إطلاق النار ، الذي أصدره مجلس الأمن صباح أمس . وكان مجلس الأمن قد وافق في أجتماعه الذي عقده مساء الأمس ، بناء على دعوة عاجلة من الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية ، لمواصلة بحث الموقف في الشرق الأوسط .

استدارت العربة ، وارتفع صوت موتورها . ضاع مني صوت المذيع . نظرت إلى الصندوق الخشبي . الصندوق لا يتحرك رغم اهتزاز العربة . قلت ، ربما يحاول مصري ـ مثلي ـ أن يلتقط ما يقال ويفهمه ويستوعبه . أن ما قيل ليس صعباً على الفهم . ولكن من حق الكل ـ خاصة نحن ـ أن نفهمه ونتمثله كل بطريقته الخاصة . اهتز الصندوق من جديد . بدا لي أن مصري فهم اللغز وبدأ في حل طلاسمه . حركة الصندوق هذه المرة ، بدت أقرب إلى التململ أو محاولة التعبير عن عدم الرضى ، لا أدري ـ أو محاولة قول إيضاحات اللحظة ما بعد الأخيرة ، حيث يكون الأوان قد فات . يبدو أن كل هذه خيالات رجل أصابه التعب والضنى قبل الأوان بكثير . إن التعب لم يفارقني حتى لحظة كتابتي . والناس يقولون ، أن التعب حالة تصيب الإنسان ، وسرعان ما تنتهي بعد أن يستريح الإنسان قليلاً من الوقت ، ولكني استرحت بعدها من كل شيء . أما التعب فلم يذهب ، لازمني طويلاً . القلب متعب ينتفض ، يتكلم ، يكتب لكم هذه الكلمات بنشوة متعبة . ما من حل أمامي سوى أن أكتب . أن يضيع الإنسان من حلقة إلى أخرى ، دون أن يدري كيف يتم

هذا . كل ما في حياتي يبهت أمام السر الذي أحمله ، لا شيء في العمر كله يساويه . عبثاً أبحث عن مقارنات . هل حدث في الدنيا كلها ، مثل حكاية مصري ؟ لا أعتقد . من المفروض أن أركز كل ما أكتبه عن موضوع مصري وما جرى له . الكتابة عن أي موضوع آخر خيانة لمصري نفسه ، إن هذا يوقعنا في الخطأ الآخر القاتل ، وهو فصل الأمور عن بعضها البعض . كل الأمور مرتبطة ببعضها ومع هذا لن أتحدث سوى عن مصري وسترون أنتم مدى تداخل الأمور في بعضها لدرجة يبدو الفصل خرافة مستحيلة التحقيق . الحديث عن مصري له نقطة بدء واحدة . ذلك اليوم البعيد ، يوم أن تعرفت به ، يوم حضوره إلى الوحدة . لن أنسى المرة الأولى التي سمعت فيها صوته . أن أول ما يصل الإنسان في مثل هذه الحالات هو الصوت . ذلك الهواء الخارج من الفم والذي يتحول إلى صوت نسمعه جيداً . صوته كان خجولاً ، وكانت فيه حاجة، نداء إنساني لا حد له . يطلب الخدمة ، مد اليد إليه ، التعارف . وصلني صوته . أحسست بما فيه من احتياج انساني . نظرت إليه . في العين شيء إنساني يحترق . اعتقد أنني جانبت أصول الذوق واللياقة التي تفرضها أصول الحديث . لي العذر . لم أجد من يقدمني لكم ، فليس لنا في هذه الرواية مؤلف يتولى كل هذه الأمور نيابة عنا . لهذا علي القيام بتلك المهمة بنفسي ، أنا صديق مصري ، جعلتني الظروف ـ الحسنة أو السيئة ـ أقرب الناس إليه . أنها الظروف التي تجعل مصائر الناس تتلامس وتتقارب وربما تتشابك دون تدخل منهم أبداً . أنني أسأل نفسي الآن : ماذا جعلني أقترب من مصري بهذه الصورة ؟ لماذا غمست نفسي في مشكلته إلى هذا الحد ؟ وبأي سبب أصبحت طرفاً في هذه الحكاية المحزنة ؟ الإجابة أني لست أدري ، على الأقل لا يوجد سبب واضح لذلك . ثمة أسباب متشابكة في : اللقاء الأول ، الوجه يصافح الوجه ، المساء ، ذلك المساء البعيد ، وصلت إلى الوحدة دفعة جديدة من المجندين . كنت نوبتجي

مكتب السرية ، وكان عليّ أن أستقبلهم . في تلك اللقاءات الأولى ، تقال كلمات معادة : الاسم ، المؤهل ، تاريخ التجنيد ، تاريخ الحضور إلى الوحدة ، البلد الأصلي ، العمل الخارجي ، العمل بعد التسريح من الخدمة العسكرية ، نوع الواجب المدرب عليه للحرب . كانت الدفعة صغيرة ، ثمانية من المجندين حضروا من مركز التدريب ، أخذهم رقيب نوبتجي الوحدة إلى عنبر المجندين ليضع كل منهم مهماته . استراحوا قليلاً . لم يكن لهم تعيين بالوحدة لأنهم حضروا بعد العاشرة صباحاً ، أي بعد إرسال يومية التعيين . استأذنوا في الخروج قليلاً ، لشراء طعام من بعض المحلات المحيطة بالوحدة . أعطاهم رقيب نوبتجي الوحدة إذناً بساعة واحدة ، يحضرون بعدها . حضروا في الموعد . وكان واضحاً أنهم في حالة استرخاء بعد عناء يوم الترحيل وهو من الأيام الصعبة في حياة المجند .أحضرهم إلى الرقيب النوبتجي لأقوم بتسجيلهم حسب التعليمات المتبعة في مثل هذه الحالات ، وقفوا أمامي في صف صغير . تقدم واحد منهم وبيده أوراق فيها بعض البيانات المطلوبة بها الرتب والأسماء وتاريخ الترحيل وشهادة آخر تعيين صرفوه من المركز قبل إرسالهم وشهادة آخر صرفية مالية صرفت لهم وبيان بالفرق التي حصلوا عليها . منهم سبعة دربوا على حمل النقالات ، وواحد فقط حصل على فرقة ممرض . وكان هو الذي أعطاني أوراق الجماعة . لفت نظري فيه تواضعه ، أو لنقل بلغة الميري تراخيه العسكري ، وإنعدام الضبط والربط لديه . لم يكن يعلق على كتفيه أشرطة . ولكن كان واضحاً أنه حكمدار الجماعة وإن كان ليس سعيداً لإستخدام هذا الحق في معاملته لهم . نظرت إليه ، فكرت أن ألفت نظره إلى أنه لا يستحق أن يسند إليه أي عمل قيادي . لم تخرج الكلمات من بين شفتي ، صدقني طيبته هي التي منعتني . نظرت إليه . فلاح في عقد الأصابع واليدين ما يميزه . قرأت في أعماق عينيه تعبيراً عن إضطراب نفسي . بدا لي كائناً ضعيفاً يطلب

المساعدة ، وسرحانه كان يقول أن بداخله قدرمن الأسىالذي تأخر الإعلان عن وجوده . وجه مصـري أسمر في لـون طمى النيل . وبـدأت في أخذ العناوين . وفضل حكمدارهم أن يكون هو الأخير . وهذا أيضاً تصرف له غرابته ، فالمفروض أن يقدم نفسه على الجميع . أتى دوره . وقفته أمامي تحولت إلى وقفة عسكرية متصلبـة . لم أستطع نـطق اسمه في الخـطاب أمامي لسوء الخط . فسألته :

ـ اسمك ؟

ـ . . . .

لم يكمل اسم والده ولا عائلته ولـم أطلب منه ما هو أكثر من هذا . سألته مرة أخرى عن الاسم ، قاله لي . وبياناته كانت كـالتالي : حـاصل على الإعدادية ، من إحدى قرى الوجه البحري . جند في منـطقة تجنيـد الإسكندرية . وتـم ترحيله إلى إدارة التجنيد بحلميـة الزيتـون ووزع على سلاح الخدمات الطبية . وترحـل إلى أساس الخـدمات الـطبية ثم مـركز التدريب وأخيراً تقرر تعيينه بإحدى مستشفيات الجيش الموجودة بالقاهرة ، حيث كنت أخدم . لم يكن له عنوان في القاهرة ، أملى على عنوان أهله في قريته . وأما عن عمله قبل التجنيد فكان طـالباً ، وهنـا تبت في ذهني أول تساؤل . طالب ومجند ؟ كيف هذا ؟! للحظة عابرة فكرت أن أسـأله لماذا لم يستخدم حقه في التأجيل ؟ ولكن كثرة العمل شغلتني عن توجيه السؤال . أكملت باقي البيانات بشكل عادي وعندما سألته عن أخوته ، قال لي في البداية أنه وحيد على ثلاث بنات . وضعت القلم . كـدت أصيح فيه : إن القانـون يعطيـه حق الأعفاء ، ولكنـه قبل أن أفتـح فمي ، خبط جبهته بيده وقال لنفسه :

آه كيف نسيت ؟

قال إن له عدداً كبيراً من الأخوة ، هو أصغرهم . تلعثم وهو يحاول

إيضاح الأمر فالأسرة كبيرة جداً . ومن الطبيعي أن يحدث خطأ وهو يحاول تذكرها ، خاصة وأن هذه هي المرة الأولى التي يسأل فيها كل هذه الأسئلة الخاصة . أنا ابن مدينة ، أنظر بكل ما يمت إلى الريف على أنه نوع من الفاكهة وبدا لي ذلك المجند الفلاح القادم من قرية لا أعرف حتى مكانها ، علماً من الأسرار والحكايات . لفت نظري أنه يدرس ومجند وأنه لا يذكر كل إخوته . قدم لي تفسيراً ، قال أنه يدرس من المنازل ، وبالتالي ليس من حقه الحصول على تأجيل لتجنيده . ايضاحه لم ينطل عليّ لأنه هو نفسه بدا لي غير مقتنع به . وأوحت لي كلماته وطريقة نطقه بها ، إن الحكاية وراءها حكايات أخرى ، أصبحت بالنسبة لي جسراً إلى عالمه . اقتنعنا معاً ، أنه لا بد من المصارحة ، بصورة أو بأخرى . إن للقلب أسبابه التي لا يعرفها العقل . وأنا كبشر من حقي أن أسكب حبي في قلب صديق . لقد شعرت إن هذا الشاب يتعذب بتلك الرغبة الإنسانية الحادة في البوح ، في البحث عن إنسان يأتمنه على سره الخاص . وما أن يدعني كائن أقرأ ما في نفسه ، مهما كان ما أقرأه قليلاً ، فإني مستعد لأن أحبه . أدركت من خلال أكثر من واقعة أن له اسماً آخر غير اسمه المدون به ، وأن حياته لها بيانات أخرى غير البيانات المدونة في أوراقه . بيان واحد كان يعرفه جيداً إلا وهو تاريخ الميلاد فقط . في الصباح ، في طابور التمام اليومي ، ينادي الضابط النوبتجي الأسماء ، كي يقدم يومية تمام عن القوة ، على أن يكتب يوميات غياب لغير الموجودين . لاحظنا جميعاً أنه عندما ينادي اسمه المدون في أوراقنا، فإنه لا يرد . يتكرر النداء أكثر من مرة . يكاد الضابط أن يدونه ضمن الغائبين لولا تدخل زميل له . يذكره بأن الاسم الذي يناديه الضابط اسمه هو : يرد على الضابط الذي انبه وطلب منه أن يكون يقظاً وتساءل في سخرية أقرب إلى التهكم :

ـ هل هناك من لا يعرف اسمه ؟

طلب منه تنظيف أذنيه ، في الأيام التالية تكررت حكاية عدم

سماعه . كنت الوحيد الـذي توقف أمـام هذه الحـالة . فهـو ليس غبياً . أعـرف درجة ذكـائه ويقـظته وقـدرته على السمـع ، وردود فعله السريعـة والمباشـرة كالخط المستقيم تجاه الواقع . بعد اسبوع طلب قائد السـرية عرضه على الأطباء الذين قرروا أن أذنه سليمة وبحالة جيدة . مرت حكاية الأذن . ولكن علامات الاستفهام ظلت قائمة . صدقوني ، كنت أشعر أنه يحيا حياته بشكل بالغ الغرابة . عندما يخطو في الطوابير فالخـطوة ليست خطوته ، عنـدما يتكلم فـإنه يستحضـر من فوق اللسـان كلمات عليـه أن يقولها ، بصرف النظر عن مدى تعبيرها عنه . النـظرة واللمحة والإنفعـال والعاطفة . ودقة القلب كل هذا كان يقوم به فقط . حقيقة لا أعرف كيف أعبر عن هذا الأمر . كنا ذات مساء ، نتحدث . تكلم هو طويلاً عن الذين يكملون عشاءهم نوماً ، والذين يعيشون على الكفاف . دهشت من حديثه عن هؤلاء الناس فالثابت في أوراق الوحدة أن عمل والده عمدة . والعمد من المعروف أنهم من أغنياء الناس . أبديت دهشتي من اهتمامه بالفقراء والمساكين . اندفع في حمى الحديث .

ـ أنا واحد منـ . . .

لم يكمل الكلمة ، والسؤال الذي انبثق من ملامح وجهي لم أقله . غطت ملامحه خطوط من العرق المفاجىء ، رغم أيام الخريف الهادئة . لم أشأ التكرار . لم أحب أن أسأله : كيف يقـول وهو ابن العمـدة ، أنه واحد من الفقراء ؟! ذات ليلة ، كنا خدمـة ليلية على الـوحدة . كـان من المفروض أن يسلمني النوبتجية في العاشرة مساء وفي الـرابعة من صبـاح اليوم التالي . في المرة الأولى ، جرى التسليم بشكـل عادي . ولكن في المـرة الثانيـة كان يبـدو منفعـلاً ، بـدا نصف يقظ ونصف نـائم في وقت واحد . بعد أن أخذت منه البندقية والذخيرة . الطلقات العشر كما هي . وتممت على النوبتجية .

قال وهو يتجه إلى عنبر الجنود :

ـ الليلة فقط أدركت ما كان يعانيه أبي طوال سنوات العمر الماضية .

ـ تقول أباك .

تداخلت الكلمات على لسانه ، عجن فمه أحرف الكلمات المختلفة مع بعضها البعض :

ـ ما هو خفير .

بجهد غير عادي ، كتمت إنفعالي . جعلت الأمر يبدو وكأنه أحد الأمور العادية . أدركت أني أمام حالة من النوع النادر . ما هي الحكاية بالضبط ؟ الأيام التالية ، كانت أيام المخاض . تحاورنا كثيراً ، درنا حول المعنى الأساسي . بدا لي أنه متعب من حمله لشيء في ثقل الحديد وبرودة الرصاص . لم أشأ أن أفاتحه ، أو أطلب منه حكاية شيء لي . قلت لنفسي : الناس أسرار . من حقه الإحتفاظ بأسراره الخاصة . لا أذكر الآن اللحظة التي فجرت في نفسه ينابيع الأسى . كانت لدي تعليمات دائمة لا بد من تنفيذها بالنسبة للمجندين الجدد . ولكننا كنا ننظر إليها على إنها شكل من الروتين ولم تكن تنفذ أبداً . وهي الخاصة بالأقراص المعدنية والأقرار الخاص بمن تصرف له المستحقات المالية والتكريم الأدبي في حالة الاستشهاد فجأة ، صدرت لنا تعليمات مشددة بأن نتأكد من توزيع الأقراص المعدنية على كل أفراد القوة . وبإرسال صورة من إقرارات الاستشهاد ، كما كنا نسميها ، بعد ملئها واعتمادها ، بمعرفة الوحدة . اللحظة التي تسلم فيها مصري القرص المعدني كانت خاطفة ، تأمله بين يديه . سأل عن أهمية القرص المعدني قال له الضابط أن القرص من المعدن ، محفور عليه الاسم والرقم العسكري وفصيلة الدم . يعلق في الرقبة بواسطة سلسلة من المعدن وهو الشيء الوحيد الذي يبقى سليماً ونهتدي منه إلى شخصية المقاتل مهما حدث له في ميدان القتال ، حتى لو تحول كيانه الإنساني إلى فحمة . فلا بد وأن يبقى هذا القرص ، كشاهد إثبات أزلي . ووحيداً يقول ، إنه كان يلتف حول عنق بطل من الأبطال .

أعطيناه الإقـرار ، تقول صيغتـه أن الموقـع عليه أدنـاه ، يقر ويعتـرف بل ويطلب من القوات المسلحة في حالة استشهاده أن تصرف جميع مستحقاته المالية إلى : ثم يحدد اسم من تصرف له ، درجة القرابة ، والعنوان ، مع تحديد أقرب مكتب بريد يتم الصرف عليه . وبعد التوقيع ، تـوجد خـانة لاعتماد قائد الوحدة . تشهد الـوحدة بـأن المقاتـل المذكـور وقع الإقـرار بنفسه . ويختم الإقرار . ويصبح وثيقة تضم إلى ملف خـدمة المقـاتل . وفي حـالة الإستشهـاد ، يبقى الإقرار هـو الوثيقـة الوحيـدة المعتمـدة في الصرف وفي كافة المعامـلات الأخرى . ويـذكر الجميـع أنه رفض كتـابة الإقرار ، كان رفضه غريباً ! ترك اسم المستفيد ودرجة قرابته له على بياض وفي آخر الإقرار كتب اسمـه ووقعه . سـأله الضـابط عن السبب . رفض شرح الأمر له ، قال :

ـ إذن أكتب درجة القرابة فقط : أمي ، أبي ، أختي مثلاً .

حتى هذا الحل لم يوافق عليه . وبعد يومين ، قرر أن يكتب كلمتين فقط ، لم يزد عليهما حرفاً واحداً :

ـ الورثة الشرعيين .

هذا هو كل ما كتبه في الإقرار . ورغم أنه كان مطلوباً منا التحديـد القاطع في الاقرار إلا أنه قال أن ما كتبه يكفي وهو أحسن الحلول . فسر الجميع الأمر بأنه نتيجة خلافات عائلية يومية . وتصوروا أنه سيحضر إليهم قريباً ليحدد المستفيد بالاسم . في اليوم الذي سلم الضابط الإقرار فيه كان الكيل قد طفح به كما يقولون في القصص . حضر إليّ وقت الظهر ، قال أنه يريدني في أمر هام . اتفقنا على أن نجلس معاً في الليل . بعد طابور الهتاف للعلم والبلاد . ولكنه تهرب مني بعـد الطابـور . بحثت عنه ، لم أجده . وصل إلى مداه الأخير . في الليلة التالية تقابلنا صدفة ، سألني عن إقرارات الاستشهاد ، هل أرسلت إلى إدارة السجلات العسكرية أم لا ؟ قلت له أنني لا أعرف . سؤاله الثاني بدا لي غريباً : هل من حق أحد أن

يعدل صيغة إقراره ؟ لم أكن أعرف مثل هذه الأمور وخاصة وأننا كنا ننظر إلى هذا الإقرار على إنه نوع من الاجراء الروتيني الصرف الذي لا يقدم ولا يؤخر . قلت له بنوع من الإجتهاد الشخصي : أعتقد أن تغيير الإقرار يتطلب إلغاء الإقرار المطلوب تغييره ، وكتابة إقرار جديد واعتماده بنفس الطريقة التي عمل بها الإقرار الأول . المسألة ليست سهلة . خلال حديثي كنت مشغولاً بالحديث فقط . فاتتني ملاحظته ولكني في الوقت الذي كنت أشرح فيه هذه الإجراءات الطويلة والمعقدة كان هو يبحث عن شيء ما في جيبه ، يبدو أنه خبأه بكل عناية . بلغت درجة العناية أنه وضعه داخل الورقتين اللتين يتكون منهما كرنيه تحقيق الشخصية الخاص بالقوات المسلحة ، ثم أعاد لصق الورقتين اللتين تكونان وجهي تحقيق الشخصية ووضعها داخل الباغة الحافظة لهما من التلف . أخرج الورقة التي كانت مطبقة على شكل مربع صغير ، بنفس حجم تحقيق الشخصية ، فردها بعناية . كانت عيناه وملامح وجهه وقلبه ينبض مع الورقة . فتحها بهدوء وببطء وعناية . وضعها فوق المنضدة التي تتوسطنا في جلستنا . أدار الورقة . وضعها تحت ناظري . رفع يده عنها . لم أكن أدري شيئاً عن هذه المفاجأة الغريبة . نظرت إليه مستفهماً أشار بعينيه إلى الورقة وطلب مني قراءة ما فيها أولاً . واشترط على إنه لن يجيب على أية اسئلة . الورقة لم تكن أصلاً ، كانت صورة عن الأصل في أولها كلمة : وزارة التربية والتعليم ، تحتها مباشرة : « إدارة الإمتحانات وعنوانها بالقاهرة . البيانات التالية شهادة بأن صاحبها حصل على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية، ثم مجموع الدرجات الحاصل عليها . نسبة الدرجات تفيد تقدمه ، وترتيبه متقدم جداً في كل المواد ودرجاته تصل إلى أكثر من تسعين في المائة . وبينما أنا مستغرق في التفكير ، ضربني فوق يدي . انتبهت له . في صمت مد أصبعه التي كانت تقول : إن صاحبها فلاح . أشار إلى اسم حامل الشهادة . قرأته :

ـ مصري .

امتدت أصبعه وأشارت لصورة صاحب الشهادة . وكانت صورة الجالس أمامي بنفسه . اعترف بأني لم ألاحظ هذا . عند النظرة الأولى لم أفهم الحكاية . تصورت أن هناك تشابهاً في الأسماء أو ملامح الوجوه أو أن اجالس أمامي له أكثر من اسم ، واحد للشهرة والآخر رسمي ، وأنه يريد تصحيح الاسم والحصول على شهادة بأن كلا من الأسمين لشخص واحد . يوقعها اثنان من الضباط العاملين بالوحدة ويعتمدها من أركان حرب الوحدة . وترسل إلى السجلات العسكرية . قطع على رحلتي مع الإجراءات التي تصورت أنه يحتاجها يحكم وجودي في مكتب الإدارة . كلمته الوحيدة أيقظتني تماماً :

ـ أنا .

نطقها وأشار للصورة المثبتة على الشهادة . صورة لطالب من الأرياف . الشارب خط نابت والذقن الخفيف محلوق حتى قبل أن ينبت ، وشعر الرأس به شعيرات هنا وهناك في غير انتظام ، وربطة العنق التي يرتديها تبدو مكرمشة من كثرة الاستعمال ، أنها هي الكرافتة التي يعطيها صاحب الاستديو لكل طالب يذهب إليه ليصوره صورة لاستمارة الامتحان ، والطالب يقبل ربطة العنق هذه تفاؤلاً . أما الجاكيت والقميص فهي تخص طالباً غنياً وليكن ابن عمدة ، وهو يقوم بإعارتها للكل ، حتى يتصور بها . أنها تقوم بدور الديكور لكل المتقدمين ، فهو ابن عمدة . حرك أصبعه ببطء . ضاغطاً على الورقة لدرجة أني تصورت أن أصابعه ستمحوا الكلمات من فوق الورق . خفت أن تتمزق تحت ضغط يديه . وصل أصبعه إلى اسم الطالب ، كان ظفره بمحاذاة حرف الميم ، الذي تبدأ به كلمة مصري . قال ببطء وهو يرفع عينه نحوي :

ـ وهذا اسمي أنا .

من جديد أقول ، لم أفهم . بدت المسألة صعبة على الفهم .

تهت ، تضاحكت في محاولة لتخفيف حدة الموقف الصعب . رفعت يدي في المسافة الصغيرة التي تفصلنا . كنا نجلس في مقهى صغير ، خلف الوحدة وكان الوقت ليلاً . تساءلت :

ـ ما هي الحكاية بالضبط ؟

نظر بعيداً ، انعكست على عينيه مرئيات أول الليل في شارع شعبي :

ـ الحكاية . . الحكاية . . الحكاية . . هوووه .

أذكر أنه بعد المرة الرابعة التي ردد فيها كلمة الحكاية ، خرجت الكلمات من فمه ، وتشابكت جميع تفاصيل ذلك اليوم في ذاكرته ، اليوم الذي فاتحه والده فيه بالأمر . أثناء الكلام بدا لي سعيداً . كان يروي عطشه من ذلك النبع المسكر ، نبع الحكايات التي يحكيها . بدأ يفك طلاسم وجهه المعقدة ، الطلسم بعد الآخر ، وارتاحت الأشياء في ذاكرته لأول مرة . من قبل ، كان نادراً ما يتكلم ، الآن أسكره صوته ، فاسترخى القلب . كان يحكي ، وعندما توغل الليل ، شعرت أن هناك شيئاً ما يثب بداخله ، اتسعت حدقتا العين ، واؤزلقت منهما على الحياة نظرة جديدة ، وتحدث عن دور الليل والنهار ، عدم القدرة على إكمال تعليمه ، التوقف في منتصف الطريق ، مصمصات الناس أثناء سيره في حواري البلد . وصل إلى النقطة الرهيبة ، يوم فاتحه والده . كان ما سمعته مهولا ، والغريب أني لم أتوقعه أبداً . من الممكن توقع أي شيء إلا ما قاله لي مصري ، وتلك هي المرة الأولى التي أنطق فيها باسمه . وأن كان ذلك صعباً في البداية . فقد ارتبط شكله في الذهن بالاسم الذي عرفته به ، منذ أن حضر إلى الوحدة . بعد سماع الحكاية المؤلمة ، كانت لي تساؤلات كثيرة . فكرت في تأجيلها إلى الجلسة القادمة ولكن الأمر بدأ كالعلقم ، أو أمر منه . قلت . ، فلتفرغ من الأمر كله الآن . السؤال الذي كان يضرب في تأجيلها إلى الجلسة القادمة ولكن الأمر بدأ كالعلقم ، أو أمر منه .

قلت . ، فلتفرغ من الأمر كله الآن . السؤال الذي كان يضرب في رأسي مثل خبطات الحجر قلته :

- ولم قبلت هذا ؟

وبهدوء أجابني :

- لم يكن أمامي سبيل آخر .

لم تقنعني إجابته أبداً ، تصورت أنه يبرر لنفسه قبل أن يبرر لي فعلاً يبدو غير مقتنع به . ولأنه ما زال يخوض معركة الأقناع الخاصة به ، انطلق في حديث طويل . قال مصري ، أنه يرجوني أن لا أتصور أنه قبض ثمناً ضخماً لفعلته هذه وهو لا يفكر في حكاية الثمن ، لسبب بسيط ، إن الطريق كان قد سد في وجهه ووجه عائلته أيضاً :

- اتضح لي أننا سنسلم الأرض للعمدة برغبتنا أو رغماً عنا ، ذهبنا إلى المسؤولين قلنا كيف نعيش لو أخذ العمدة الأرض ، قالوا أن هذه ليست المسألة . سلموا الأرض أولاً وأمامكم القضاء ، في ساحة المحاكم متسع للجميع والكل يعيش الآن في أزهى عصور العدل التي عاشتها مصر . كان ذلك تضليلاً فالحالة ليست جنائية بقدر ما هي سياسية . عند مواجهة الموقف تفرقنا ، قرر البعض تسليم الأرض والذهاب إلى القضاء ، والبعض الآخر أعلن أنه لن يسلم أرضه إلا بعد أن يرويها بدمه وسيصطدم حتى بالحكومة ، والبعض الثالث ساومه العمدة . وكان أبي من النوع الأخير . أتت حكاية التجنيد وقال العمدة لأبي ابنك مقابل بقاء الأرض معكم . قبل الوالد وفرح البيت كله بهذا الحل أما أنا فقد رفضت الأمر كله بدون مناقشة . كلمة مناقشة قد تبدو غريبة وبعيدة عن حياة الناس في بلدنا . قالت لي نظرات أهلي أن رفضي سببه أنه مطلوب مني القيام بالتضحية . ولماذا أسميها تضحية ، كان المطلوب حلاً . تصورت أن الرحيل عن البلد هو الحل . من يدري ؟ ربما وجدت مستقبلي هناك .

صدقني قبلها كنت أفكر في التطوع في القوات المسلحة ، وقمت بقطع أحد الإعلانات التي تطلب متطوعين من جريدة اشتراها أحد الزملاء وكانت المزايا كثيرة . قبلت . ومن يومها ، لا أعرف حتى كيف أعيش ، أو كيف ذهبت إلى الإسكندرية . وتم ترحيلي إلى حلمية الزيتون وأكملت الرحلة ، حتى وصلت إلى الوحدة الأساسية .

قبل الإستطراد في الحكاية . هناك أمور لا بد من الكلام فيها ، وتسجيلها في أوراقي ، المسألة بالتحديد هي تفكير مصري ، كيف كان يفهم العلم . لم يكن كثير الكلام ومهما تحدث فالكلمات كانت تتأرجح بين تصميمه على أخذ الثأر ، هكذا كان يقول أو التردي في هوة اليأس . مصري ضاع . لم يسمع أحد منكم هاتين الكلمتين من مصري أبداً أنا سمعتهما منه . ولن يشعر أحد أبداً بلسعة النار التي كانت تشتعل من مخارج أحر الكلمات . هذه النار التي لفحتني كثيراً ، ستظل أحساساً يخصني وحدي ، طالما أني عاجز عن نقله اليكم . لحظتها تصورت أني مسؤول بصورة أو بأخرى عما جرى لمصري . مصري كان شاباً ينضج باشواق . فيه الكثير من تناقضات بلدنا ، حب الدنيا والزهد فيها ، الجرأة والخجل ، الخوف والشجاعة ، الواجهة المسالمة والباطن المتفجر بالثورة والتمرد . تعبت نفسي طويلاً في البحث عن كلمة أصفه بها وأستريح . ها قد وجدتها : مرتاب ؟ متشكك ؟ مراهق ؟ كان سيظل هكذا حتى ولو عاش حتى التسعين من العمر . أنا لا استعمل هذه الكلمة بمعنى الجري وراء البنات . أؤكد أنه لم يعرف هذه الأشياء طوال عمره القصير . بعد أن حكى لي مأساته سألت نفسي ، هل كان سيسعد لو عرف ذلك الشيء الذي يتحدثون عنه أربعاً وعشرين ساعة كل يوم والذي يسمونه الحب ؟ لا أعرف . المراهقة عند مصري كانت آتية من ارتيابه وشكه . أخذ الدنيا بشكل عفوي . وعندما اصطدم بالواقع انتفى اليقين لديه في عالمنا كله . هل كان هذا سبب ما حدث له ؟ لا أستطيع الإجابة لسبب بسيط هو أنني

لم أكن أعرف مصري قبل التجنيد . كل ما أقوله يدخل في باب اجتهادي الشخصي . مصري كان حظه سيئاً . لكل جيل قدره ، وقد جيلنا نحن أبناء مصر كان . هل أكمل ؟! . كان الطموح أكبر من الإمكانية . وضعنا الأقدام فلم نجد تحتها أرضاً . ورفعنا الرؤوس لنلامس السحاب فاختفت السماء من فوقنا . وفي اللحظة التي وضعنا فيها أيدينا على حقيقة جيلنا تخلى عنا الزعيم باستشهاده في الوقت الذي أزداد فيه احتياجنا له . الكلمات السابقة ، كتبت بمنطق التداعي وليس بقصد مني لو كان هناك وقت للتفكير قبل الكتابة ، كان من الممكن أن لا أكتب هذه الكلمات . أكتب وأنا أعاني من حالة اضطراب . مجرد تذكر مصري وحكايته يسبب لي رعشة . لن أشطب كلمة سوء الحظ والقدر لأنهما كتبتا وانتهى الأمر . لنعد إلى مصري . حياته كانت فصولاً متصلة ومستمرة من العذاب الذي لا نهاية له . ومع هذا لن أعلق ما حدث على كلمات القضاء والقدر والحظ المكتوب على الجبين الذي لا بد وأن تراه العين . المسألة أكبر من هذا . عندما ذهبت إلى بلدته ، وجدت الإجابة في المسافة من بين قصر العمدة الأبيض الضخم والذي يبدو لامعاً حتى في الليل ، والعشة التي يعيش فيها أهل مصري ، والتي تسمى تجاوزاً بيتاً . والفارق بين جثة العمدة التي كانت في ضخامة الفيل ، وجلد والد مصري المشدود على العظام ، لدرجة أن العظام تبدو وكأنها ستخرج من تحت الجلد بين لحظة وأخرى . يبدو أنني ألف وأدور حول معنى لا يمكن المرور عليه بسرعة وهو : لماذا ذهب مصري إلى الحرب؟ هل كان يبحث عن ميتة مشرفة. كانت أمامه آلاف الفرص ابتداء من الدفاع عن أرض أبيه التي ساوم عليها. لا أحب التعرض لمسألة الوطن والوطنية . كلنا نحب مصر . كل يحبها بطريقته الخاصة . ولكن أي مصرهذه التي نحبها ، مصر الذين يموتون من الجوع أم مصر الذين يموتون من التخمة؟ اغتصبت من مصري حق الكلام. قلت إني سأوضح أمراً، وتحول الإيضاح إلى ثرثرة، الآن يواصل مصري كلامه.

جندت بدلاً من ابن العمدة حفاظاً على أهلي ، هم الذين طلبوا هذا . وذهبت . الغريب أن الثمن لم يدفع لهم حتى الآن . لقد تنازلنا وطريق التنازل تعرف بدايته فقط ، وليست له نهاية أبداً . سافرت إلى البلد في إحدى الإجازات . قلت لكل من قابلني أنني بعد أن اكتشفت صعوبة بل واستحالة اكمال تعليمي ، قررت التطوع في القوات المسلحة . قالوا أن هذا حل واقعي ومشرف ، خاصة وأنه من الممكن أن أنتظم في مدارس القوات المسلحة المسائية وبمجرد حصولي على الثانوية العامة أدخل الجامعة أو إحدى الكليات العسكرية . وبعد التخرج يصبح باب الترقي مفتوحاً أمامي إلى ما لا نهاية . في البلد عرفت أن العمدة ، بعد ذهابي إلى الجيش ماطل ولم يعط والدي الأرض . أخذ الأرض منه أولاً بحكم القانون الجديد ، ثم سلمه قطعة منها زرعها بنظام المزارعة أو المشاركة ورفض حتى كتابة ورقة بهذا الوضع الظالم على طول الخط . غضبت من تصرف العمدة ، فكرت في الذهاب إليه ، منعني والدي ، قال لي أن المشكلة ستحل بصورة أو بأخرى وتدخلي قد يعقد الأمور . لم أقتنع يكلام والدي ، صممت على الذهاب إلى العمدة . ولكنه كان مسافراً ، وما أكثر سفره في تلك الأيام . انتهت أجازتي وحضرت إلى الوحدة :

لا بد من حل .

قالها مصري بحسم . سألته عن الحل الذي يراه : الضغط على العمدة حتى يفي بوعده مثلاً ؟ أم ماذا ؟ رفض ذلك بشدة . قال أنه لا يستطيع رفع عينيه في أحد الأهالي لعدم اشتراك أبيه مع الآخرين في الوقوف ضد العمدة ، وتخليه عنهم . صحيح أن الآخرين لم يصلوا إلى شيء . وكان أكبر خطأ وقعوا فيه هو تسليم الأرض واللجوء إلى القضاء وبذلك أضاعوا البعد السياسي للقضية وحولوها إلى واحدة من آلاف النزاعات المنظورة أمام المحاكم منذ سنوات . يكمل مصري : أنه رغم

خجله من موقف والده ألا أن التفكير عنه لن يكون سوى بموقف واحد لا بديل له ، وهو كشف العملية كلها .

دهشت ، تساءلت :

ـ كيف ؟

قال بهدوء :

ـ أطلب العرض على سيادة القائد ، وعندما أدخل مكتبه أحكي له الحكاية من أولها إلى آخرها .

أوضحت له :

ـ ولكنك مشترك في الخطأ وستحاسب .

قال لي :

ـ بغير هذا لن أستريح .

سألته :

ـ ومستقبل الأسرة ؟

قال بعزم وتصميم .

ـ هل سمعت عن أحد مات من الجوع . سنبدأ من الصفر ، وسأكون مسؤولاً عنهم من الآن وحتى لحظة وفاتي .

قلت له :

ـ ألا تخاف العمدة وسلطانه في البلد .

مرت فترة قصيرة قبل أن يجيب :

ـ الخوف أو الحرص طعام سام .

كان ساهماً وهو يكمل :

ـ لن أخاف أحداً بعد الآن .

استغرق الحديث وقتاً طويلاً . شعرت أن مصري يريد أن يعتذر لي عن الوقت الطويل الذي أضعناه . نظر في ساعته ، كنا قد تجاوزنا منتصف

الليل بقليل . ذكرته أننا في شهر رمضان ، وأنني أفضل أن نظل ساهرين حتى موعد طابور السحور بدلاً من النوم قليلاً ، فهذا يفسد السحور ويجعل النوم بعده مسألة صعبة . اتهمني بأني أجامله بكلامي . اقسمت لـه أنني كنت سأسهر سواء تكلمنا أم لا فالسهر حتى السحور ، عادة رمضانية قديمة عندنا نحن أبناء المدن .

أصارحكم ، لقد سعـدت بكلام مصـري ، ها هي أسئلتي الكثيـرة تجد الإجابة عليها . سعدت باللحظة التي أتخذ فيها قراره بكشف المسألة كلهـا . أثناء الحكـاية وعنـدما وصـل إلى اللحظة التي قبـل فيهـا عـرض العمدة . شعرت أني خسرت رجلاً أحببتـه بالفعـل . ولكنه عنـدما حـرك شفتيه ليقول أنه لن يخاف أبداً ، أدركت أنني استعدته ، وقررت الـوقوف بجواره حتى النهاية .

اخرجني من أفكاري بقوله :

ـ تصـور الوضـع لو تـوفيت ، هل تعـرف الظروف التي ستـواجهها عائلتي ، ومن الذي سيستفيد من الوفاة .

قلت له ، دعنا من هـذه التصورات عن الغـد ، واحتمالات الأيـام القادمة ، تكفينا اللحظة التي نجلس فيها معاً . ودعني آخذ بيدك لأضعها على حقيقتك التي اكتشفتها الليلة . لا أعرف هل أهنئك أم أقول لك أن عثورك على حقيقة نفسك يعني بداية المشاكل ولا بد من الاستعداد لها .

قال :

ـ لا تهمني المشاكل وأنا مستعد للتغلب عليها .

طلب مني أن أوجه اليه التهنئة . إن ما حدث الليلة هام . لقـد عاد إليه مصري القديم مرة أخرى ، بعد غربة لم تطل كثيراً ، ولن يتوانى عن استثمار اكتشاف الليلة .

ضحكت وقلت له :

ـ مبروك يا . .

لم أكن متعوداً على مناداته اسمه الجديد ، أقصد اسمه الحقيقي ، أكمل هو :

ـ قلها ، مبروك يا مصري .

اتفقنا على البدء من صباح الغد ، أن يطلب في طابور التمام الصباحي من الضابط النوبتجي رسمياً عرضه على القائد ، وأن يتأكد أن هذا الطلب أدرج في دفتر أحوال المستشفى .

في طابور الصباح ، رفع مصري يده . قال أنه يطلب العرض على القائد . سأله الضابط النوبتجي عن الأمر ، قال : أنها قضية خاصة ولا يمكن عرضها في الطابور العام . ألح الضابط . مصري مصمم على ألا يقول أكثر من هذا . وعده الضابط بوضع طلبه في دفتر الأحوال الذي يعرض على القائد بمجرد حضوره . بعد الطابور لم يستطع مصري عمل أي شيء ، كان مرتبكاً . فكرت في الخروج معه والجلوس في المقهى ولكننا كنا في رمضان ونحن صائمان . أخذته معي حتى أنهي بعض أعمالي . شعرت أن أعماقه ترتجف من الموقف الذي سيواجهه . الساعة العاشرة ، موعد عرض المكاتب على القائد هو الثانية عشرة . قلت له : الباقي ساعتان . بعد قليل عرفنا أن القائد خارج الوحدة ، استدعي إلى اجتماع عاجل في قيادة المنطقة العسكرية المركزية . سيذهب بعده إلى إدارة الخدمات الطبية ولا يعرف أحد أن كان سيعود إلى الوحدة بعد هذه المهام أم سيذهب إلى منزله . لا أستطيع وصف مدى التشاؤم الذي اعترى مصري بمجرد علمه بهذا . عجبت من غضبه وعصبيته . قلت له : إن اليوم لن يؤثر كثيراً . الأمر لا يستحق كل هذا التوتر . اليوم هو الأربعاء ، غداً الخميس . وإن لم يحضر القائد فيوم السبت ليس بعيداً . كور مصري قبضته وخبط بها المكتب . حاولت تهدئته ، ولكن ذلك كان مستحيلاً . آخر اليوم تأكد لي أن لدي مصري قوة فريدة على الإحساس بالغد ، فالذي

حدث أنه عندما أتت الساعة الثانية بعد الظهر ولم يحضر القائد ، قلت أن الأمر سيؤجل إلى الغد . ولكن حوالي السادسة مساء فوجئنا بحضور كل ضباط الوحدة تقريباً والقائد نفسه كان في مقدمة الذين حضروا . سرت حكاية غير عادية في الوحدة . قال الكل إن شيئاً غير عادي سيحدث بسبب حضور الضباط والقائد في هذا الوقت . على الفور عقدت اجتماعات مطولة بين القائد ومساعديه، وأركان حرب المستشفى ورئيس الشؤون الإدارية والفنية ، وقائد السرية . سريعاً تسرب الينا الخبر . أعلنت حالة الطوارىء ، ولا بد من تواجد القوة داخل المعسكر بنسبة مائة في المائة مع استدعاء الإجازات ووقف منح أية تصاريح للأفراد مهما كانت الأعذار . بعضنا لم يفاجأ بالقرارات لأن بعض أفراد الاحتياط استدعوا البارحة . المفروض أن يحضروا أحياناً للتدريب ولكنهم في هذه المرة ومع بداية أكتوبر حضروا ومعهم مهماتهم ، وإن كانت حكايتهم لم تلفت نظر أحد . ثم توالت الإشارات تحدد بعض التخصصات للترحيل للجبهة فوراً . طلب القائد إنهاء كل الأعمال المؤجلة لنتفرغ كلنا لمواجهة الوضع الجديد وطلب مصري للعرض عليه إذ لا أحد يعرف شكل الغد . عندما كان مصري يرتدي ملابسه العسكرية للتوجه إلى مكتب القائد لم يكن مهتماً بالموضوع . لم يستغرق العرض سوى دقائق معدودة . خرج مصري بعدها سعيداً . لم يقل لي ما حدث ولكنه اتجه فوراً إلى عنبر نوم الجنود وبدأ يعد مهماته . لم يرد على اسئلتي ، كان يتحرك بسرعة . اضطررت لأن أوقفه بالقوة لكي يقول لي ما حدث في مكتب القائد .

قال لي ببساطة :

ـ مسافر إلى الجبهة .

ـ ماذا حدث بالضبط ؟

ـ لا شيء ، بدلاً من تقديم شكواي ، طلبت من القائد ترحيلي إلى الجبهة بأسرع ما يمكن وبأي صورة .

ـ والمشكلة ؟!

ـ خجلت من الكلام في مشكلة ومصر على أبواب حرب التحرير .

ـ ومن أدراك بحكاية الحرب ؟

ـ احساس خاص .

ـ الطوارىء أعلنت من قبل أكثر من مرة ولم تقم الحرب .

ـ هذه المرة لها رائحة خاصة .

صرخت فيه :

ولكن مشكلتك ؟

قال لي :

ـ كل المشاكل والقضايا من الممكن أن تنتظر أياماً وشهوراً وأعواماً ، ولكن تحرير الأرض لم يعد ينتظر أكثر من هذا .

أكمل بعد قليل :

ـ وبعد اتمام الجزء الأول من قضية التحرير . وعند العودة تسوى المشاكل الداخلية وهي الجزء الثاني من حرب التحرير . اطمئن .

سألته :

ـ وهل أعطيت القائد فكرة عن حكايتك ؟

ـ ليس هذا وقته .

قلت له ، إن كنت قد خجلت من الكلام في هذا الجو فأنا مستعد أن أتكلم نيابة عنك ، ورفض ، قال أنه في الظروف العادية هناك ألف فارق بينه وبين ابن العمدة ، الآن أصبح الكل واحد . فوارق الاسم والرسم والملامح لم يعد لها أية قيمة الآن ، لا بد وأن ينال شرف تحرير مصر . ليس مهماً بأي اسم ولا بأي صفة ولكنها فرصة . هذا الكلام ذاته قاله للقائد من خلال كلمات أخرى . قال للقائد أن سفره إلى الجبهة سيمنحه الراحة الوحيدة التي يبحث عنها ، لكي يستعيد احترامه المفقود لنفسه . كلماته تدفعني إلى تساؤل : هل الاستشهاد هو ما كان مصرى يبحث عنه ؟

وترى بأي الصفات سافر إلى جبهة القتال ؟ هل سافر محتجاً أم شهيداً جاهزاً . استشهد في معركة الداخل قبل أن يواجه عدونا كله ؟ حيرتي شديدة . وأنا أكتب ينتشر بداخلي دم انسان آخر أصبح قريباً مني . أحمله على كتفي . مصري ضاع . قالها هو أكثر من مرة . وماذا يمكنني فعله من أجله سوى البكاء بين يدي ذكراه والحديث عنه . وما قيمة هذا ؟! من يموت يقطع بنفسه فقط . ويبقى حتى أقرب الناس إليه يجرون حياتهم جراً . ما ذنبه هو؟ وما ذنبي أنا . حكايته أكدت لي معنى واحداً ، أنه لا يوجد عدل في عالمنا ، وأننا إن قررنا احترام انسانيتنا لا بد وأن نطالب الله بالعدل . وإن رفض مطلبنا هذا لا بد من البحث عن رب غيره . والعدل له معنى واحد : أن يعطي القوة والقدرة لمن بيده حق عاجز . أرجوكم ، لا أحب أن يسألني أحد منكم : وأنت ماذا فعلت من أجل مصري ، ولماذا تعلق الحكاية على حافة السماء ، وتحيطها بضباب الغيبيات والأساطير بهذه الصورة ؟ وأين ايمانك بقدرة الإنسان على خلق مصيره وتوجيهه ؟ لنعد إلى مصري ، كان أصراره على السفر إلى الجبهة غريباً . حاولت الكلام معه ، كان منصرفاً عني للاستعداد . تلك مسألة لن أفهمها . الإشارات التي وردت لنا كانت تطلب بعض التخصصات ولم يكن تخصصه من بينها . فلكل مجند منا تخصصه : نقول عنه في لغة العسكريين ، الواجب المدرب عليه للحرب . كان مطلوباً بعض حملة النقالات واخصائي أشعة واخصائي معمل وبعض العاملين في المطابخ الميدانية المتنقلة . وكان واجب مصري المدرب عليه للحرب ممرضاً . لم يكن مطلوباً ومع هذا أصر على الترحيل ، لم أصادف في حياتي شاباً مثله . البعض منا تهرب من الترحيل ، وأقرباء علية القوم وأصهار كبار الضباط ، ومن تدق تليفونات كبار المسؤولين تطلب اعطاءهم إجازات بين الحين والآخر . هؤلاء ، دقت التليفونات في الوحدة ، وتكلم أقرباؤهم بأصوات ناعمة ، لم تعرف طعم المعاناة ، يرجون أن لا يتم ترحيل أقربائهم إلى

الجبهة لأنهم جنود . وماذا سيفعل جندي في القناة الآن ثم أن للجندي من أبناء الذوات مصالح . هذا له مشروع تجاري يفيد البلد ، وذاك يعول اسرة وثالث والده خارج البلاد في مهمة وظيفية وماذا سيقدم جندي أو يؤخر ؟ مصري كان فريداً . خيل إليّ في اندفاعه إلى القناة ، أنه سيجد هناك الحل . أو سيتطهر في مياه صبر السنوات الطوال . اقترب مني كان يريد الحديث معي . فجأة ، انفعل وبدت كلماته مشبعة بعاطفة لم أحسها في كلامه السابق . قال لي ، أن السبب الأساسي في قبوله التجنيد بدلاً من ابن العمدة ورفضه اثارة المشكلة اليوم ، إن ما يقول به ليس سرقة ولا تهريباً وإنما هو أداء واجب وطني لمصر . فهو يحب مصر إلى درجة العشق ، ولا يسعده في حياته الخالية من أية سعادة إلا اسمه . وإن كان لا يعرف هل سماه والده بهذا الاسم عن قصد أم أن الصدفة هي السبب . قال أنه يحب والده لأنه ربط اسمه بأحب بلاد الله إلى نفسه . كانت المرة الوحيدة التي انفعل فيها مصري واحمر وجهه وغطته حبات العرق .

خلال استعداداته ، كان ينبت بداخله انسان جديد . قبل الرحيل تنبه عليه إن كانت هناك أية تغييرات في بيانات إقرار الإستشهاد فعليه أن يثبتها قبل ترحيله . قال أنه ليست لديه أية تغييرات . أخذني بعيداً قال لي : أنني الوحيد الذي أعرف سره وإن لم يعد فأنا المسؤول عن تصحيح الأمور . وأكمل بأنه ظلم في حياته ولا يحب أن يلاحقه الظلم إلى هناك . ولما كنت أود الأدلاء بشهادتي في هذه القضية ، فليس من صالح أحد أن أجركم معي إلى بعض المواقف العاطفية ، ليس الهدف مما أقوله أن أجعل عيونكم تمتلىء بالدموع الدافئة على مصري ، بقدر ما هو أن نفكر معاً فيما حدث بعقولنا . لن أصف وداعي لمصري عندما أتت لحظة السفر ، ولا معنى الرحيل في انتصاف الليل في وقت خريفي شاحب ولا حتى الكلمات الأخيرة التي تقال في مثل هذه المواقف .

في اليوم التالي ، وردت إشارة إلى الوحدة ، لترحيل بعض الأفراد ،

وطلبت السفر مع الإرسالية . كنت أرغب أن أكون بجوار مصري . كان اللقاء مؤثراً ، تحول الشاب الذي يحمل تلك الحكايات على كتفيه إلى مقاتل ميداني يثير الإعجاب . ورغم أنه سبقني في الحضور إلى هنا بيوم واحد ، إلا أنه بدا لي وكأنه هنا منذ سنوات مضت . أخذني من يدي ، طاف بي في كل مكان بالمعسكر . حبه للمكان أكد لي أنه يتعامل معه على أنه بيت أهله . وفي اللحظات القليلة التي قضيناها وسط الاستعدادات والأعمال التي لا نهاية لها ، عاودته الرغبة في الحديث عن موضوعه . ولكن الظروف لا تمهلنا . وصلت إلى الجبهة ظهر الجمعة ، وبدأت حرب التحرير بعد مرور أربع وعشرين ساعة على وصولي . كان الوقت ضيقاً ، ولكننا حولناه بحماسنا إلى مساحة لا نهائية من الزمن . بمجرد أن تكاملت الوحدة ، بدأنا على الفور في حفر خندق يحيط بها من كل ناحية ، وقمنا بتعبئة عدد كبير من الأكياس والأجولة بالرمال وضعنا منها سواتر تحيط بنا . نصبنا الخيام للإدارة ، وخياماً أخرى كعنابر للنوم وخيمة تستخدم كمكان للكشف وثالثة كحجرة لإجراء العمليات الجراحية . أما أكبر الخيام التي كانت معنا ، فقد تقرر استخدامها كعنبر للمرضى الذين سيكونون في انتظار الترحيل . ثمة خيمة أخيرة ، قالوا لنا أنها ستستخدم كمشرحة شعرنا بالانقباض ونحن نسوي مكانها وندق أوتادها في الأرض ونربط أعمدة الخيمة بالأوتاد . لم يبق أمامنا سوى عمل إجراءات التمويه المعروفة وحفر أماكن للسيارات تخفيها . ثم نصبنا المطبخ الميداني وأخفينا مخازن الدواء والذخيرة والسلاح والتعيينات الميدانية الجافة . بعد هذا الجهد الضخم كانت لدي بعض الواجبات الإدارية . أنشأت وجهزت دفتراً للأوامر اليومية وسجلا للقوة الموجودة في الوحدة ، ودفتراً للإشارات الصادرة والواردة ودفتراً لأحوال النوبتجيات وإجراءات التسليم والتسلم بين النوبتجيات . كان عملاً شاقاً ومرهقاً ، ولكننا كنا سعداء لدرجة أن الاحساس بالتعب لم

يتسلل إلى أحد منا . وفي آخر الليل كانت مشكلة الضابط النوبتجي معنا هي الحاحه علينا أن ننام مبكرين بقدر الإمكان . وحدتنا لم تكن مستشفى لعلاج الجرحى وانقاذ المصابين واستقبال الشهداء كان اسمها مستشفى الفرز الميداني رقم واحد . من الاسم تبدو المهمة واضحة . مستشفى متقدم في الخطوط الأمامية ، يستقبل الحالات الساخنة ، بلغة الميدان ، فور وصولها إلينا وفرزها . البعض تقدم له اسعافات أولية وعلاجات سريعة ، ثم يعاد إلى الميدان فوراً . والبعض الآخر نصف حالته المرضية . أما الشهداء فلهم إجراءاتهم التي نقوم بها في مثل هذه الحالات .

أبلغنا بالأمر . كان مطلوباً منا أكثر من فصيلة ، مكونة من الممرضين وحملة النقالات لكي يتقدموا إلى أبعد خط تحميه قواتنا ، على أن يرفعوا علم الخدمات الطبية ، على اعتبار أن المواثيق الدولية تحرم ضربنا خلال القتال . وقف قائد المستشفى الميداني ليقرر من يتقدم إلى أبعد خط ممكن . وكان أبعد خط في هذه اللحظة ، أي في صباح السبت هو الشاطىء الغربي للقناة . كنا نقف في طابور التمام الصباحي ، الوقت هو السابعة صباحاً . مصري يقف على يميني يرتدي (أفرول) لم يعرف الكي . بدا لي أنه وضعته تحت رأسه بالليل حتى يبدو مكوياً . أعلن القائد أنه سيختار من يتقدمون إلى الخط الأول . رفع مصري يده اليمنى ، امتدت في المسافة التي تفصلنا عن الطابور الواقف أمامنا راسمة خطاً وهمياً في الهواء . اهتز جسمه مع كلمة واحدة نطق بها في عزم :

ـ أفندم .

قبل أن يأذن له قائد المستشفى ، تراجع إلى الخلف ، وبخطوة سريعة لف حول الطابور ، إلى أن أصبح أمام القائد مباشرة . حياه ، أمر بتدوين اسمه في رأس القائمة . حاولت أن أكون معه ، ولكن طبيعة عملي الإداري حالت دون ذلك ، مكاني الطبيعي كان في الوحدة نفسها . لا بد

من وصف آخر لحظة شاهدته فيها ، بعـد أن تم أختيار الفصيلة الأولى ، وعين مصري حكمداراً عليها . تحركوا لاستلام أربـطة وعلاجـات وطعام الميدان والكمامة الواقية من الغازات وزمزمية المياه . بسرعة وسهولة تمت إجراءات التسليم . لم أتمكن من محادثته . شاهدته يساعد زميـلاً له في حمل نقالة بيده ، وقد علق في أفروله كل ما تسلمه منذ قليل . كان يقف في مكان مرتفع . شاهدت ملامـح وجهه من أحـد جانبيهـا ، ومن خلفها رمال صحراء لا نهائية . وعندما استدار إلينا قبل تحرك الفصيلة ، تأكد لي وجود حبات عرق نابتة فوق وجهه رغم اعتدال جـو الخريف . أذكـر هذا جيداً ، لأن ضوء الشمس بدأ لامعاً عندما انعكس على جلد وجهه. بدأت حركة الفصيلة نحو الشرق بـطيئة ، ولكن مصـري كان مسـرعاً في سيـره لدرجة أنه خيل إليّ أن تغيراً ما أصاب جسمه فجعل نصفه الأعلى مقوساً ناحية الأمام . ربما اتهمت بـالمبالغـة إن قلت أن جسم مصري بـدا على شكل قوس متجهاً ناحية الشرق . وتلك آخر مرة أراه ماشياً على قدميه .

خمسة عشر يوماً لم أره فيهـا . كان المفـروض أن تستبدل الفصيلة بشكـل دوري نظراً لصعـوبة الـظروف . وبـالفعـل عـادت الفصيلة ولكن مصري كان يبقى دائماً هناك وتحولت حكايته إلى نوع من البطولة التي لا نعرف كيف نتحدث عنهـا . تبدو الكلمـات مجهدة ، واللغـة قد شـاخت وترهلت، ولم تعـد تصلح للتعبير عن أي شيء إلى أن كـان يوم الأحـد ، الحادي والعشرون من أكتـوبر مسـاء . كنا في الأيـام العشرة الأخيـرة من رمضان . والقمر لا نراه إلا في أواخر الليل . قالوا أن الأيام المتبقيـة من رمضان تقع فيها ليلة القدر وعلى جنود الحراسة الليلة أن يحاولوا رؤيتها . في تلك الليلة وقبل انتصابها بقليل حضروا بمصري إلينـا . عاد محمـولاً على إحدى نقالات فصيلته . كان مصاباً بشظية في عنقه ، وجرح في بطنه وكسر في عظام قدمه اليسرى ، ويبدو أنه أصيب وظل فترة من الوقت يعمل وسط الجرحى وهو مصاب ، ولـم يبلغ أحداً بإصابته وظل هكذا إلى أن فقد

وعيه وسقط على الأرض فاكتشفوا إصاباته الكثيرة . كان قد نزف كل دمه تقريباً ، وتسممت إحدى جراحه . من لحظة حضوره تركت عملي . وعلى باب خيمة الكشف قرأت على وجوه الأطباء الذين عاينوا حالته أنه ميؤوس من علاجه ولكن القائد أمر بعمل المستحيل . قضيت بجواره فترة الهذيان المحموم . لم يخرج الهذيان عن معنى واحد . طلب مني بكل كلمات التوسل والرجاء التي عرفتها لغتنا أن أذهب إلى أهله ، لا بد من انصافهم . لقد عرفت حكايته ، واستشهاده على أنه مصري . وليس على أنه ابن العمدة ولا بد من ايضاح الأمر مهما كانت الظروف . أنه لم ينفع أهله في حياته ، فليتحول استشهاده إلى بر أمان في مواجهة مستقبل لا يعرف شكله أبداً . أخذت كلامه ببساطة . لم أتصور أبداً أن مصري خلق ليموت لا بد وأن يعيش ، لو تمكنا من ترحيله إلى أي مستشفى قاعدة أو مستشفى مركزي مجهز . ظل هذيانه حتى اليوم التالي . كان عليّ أن أتحرك في إرسالية إلى القاهرة لإحضار أدوية من المستودع الرئيسي . فكرت في الاعتذار عنها لكي أبقى بجوار مصري ولكني خجلت من فكرة الإعتذار . بحثنا عن سيارة لها صندوق مغلق . اكتشفت أن أنسب سيارة هي سيارة نقل الموتى . صندوقها الخلفي ضخم ويمكن إغلاقه وهو أفضل مكان لنقل الأدوية . أثناء تحريك أمر التشغيل وأوراق المهمة التي سنقدمها للشرطة العسكرية رن التليفون الميداني والذي يوصلنا بقيادة المنطقة . عندما رفع الجندي سماعته تلقي إشارة تقضي بوقف إطلاق النار ابتداء من الساعة ١٨,٤٥ . وقبل أن يستقر الحزن في أعماقنا ويترسب قالوا أن مصري يموت . جريت نحو خيمته . كان يذبل ، يتلاشى ، مددت يدي ، فردت قدميه ، وضعت يديه بجوار جسمه وأسبلت عينيه . أبلغنا قائد الوحدة . طلب منا أن ننتظر لنأخذ جثمانه معنا إلى القاهرة . وأوصى بضرورة ترحيله إلى بلده ليدفن فيها . بسرعة تم تجهيزه وتحرير شهادة الاستشهاد الخاصة به .

هـا أنذا جـالس في صنـدوق السيـارة الخلفي . الـراديـو مـا يـزال مفتوحاً . أدرت مؤشر المحطات . أتاني صوت وقور يقول :

ـ وفي الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقـة أصدر الفـريق أحمد إسماعيل علي وزير الحربية والقائد العام للقـوات المسلحة نـداء إلى جميع تشكيـلات القوات المسلحـة قال فيـه : صدر أمـر القائـد الأعلى للقوات المسلحة بإيقاف إطلاق النار اعتباراً من الساعة ١٨,٤٥ اليوم ٢٢ أكتوبـر سنـة ١٩٧٣ بتوقيت القـاهرة ، إذا التـزم العدو بـإيقـاف النيـران في هـذا الموعد .

وصلنا القاهرة مساء . من النافذة رأيت الحياة كما تـركتها . سبعـة عشر يوماً مضت . ومع هذا شاهدت طفلة تحمل أرغفة ساخنـة من الخبز البلدي وهي تحرك أصابعها من تأثير السخونة عليها . شاب وفتاة تشابكت أصابعهما وربطت بين عيونهما خيوط النظرات يتناجيان في أحد الشـوارع المـظلمة والمهجـورة . وعجوز تتسـول صدقـة من متسكعي أول الليل . وصلنا المستشفى ورغم أنها مغـروسة وسط مـدينة صـامتة مستكينـة لليل طويل قادم ، بعيدة عن الميدان ، إلا أن رائحة الحرب كانت تملؤهـا في صمت . دخلت المستشفى من بـاب الحملة الخلفي نقلنـا مصـري إلى المشرحة . فتحنا الصندوق . كان حظر الإضاءة شاملاً ، وكنا نسبـح في بحار الليل . لم أشاهد ملامح وجه مصري . كانت لدي رغبة في إشعال عود كبريت لالقي نظرة أخيرة على الوجه المتعب المجهد ولكن تعليمات حظر الإضاءة كانت سارية . ثم أني عائد لتوي من ميدانٰ القتال . وهـذا يجعـل احساسي بجـدية المـوقف مختلفـاً عن أي شخص آخـر . خـرج نوتبجي المشرحة ذهب إلى الحي المجاور ، اشتـرى لوحين من الثلج ، كسرناهما إلى قطع صغيرة ، وضعنا القـطع حول الجثـة من كل نـاحية . سألت عن إرسالية الدواء التي حضرت من أجلها . اكتشفت أن المستودع أرسلها صباح اليوم . وأمامي ثلاثة أيام حتى يتم تجهيز ارسالية جـديدة .

وهكذا شاءت الظروف أن أتمكن من السفر مع العزيز الغالي إلى بلدته . تفاصيل الرحلة وما تم هناك سيحكيه لكم حضرة الضابط في الفصل القادم . يكفيني ما حكيته لكم . ولكني كقاهري لا أقول أنني ذهبت إلى ريف مصر لأول مرة . كتعبير عن إقامتي طول العمر في المدن . ولكنها كانت المرة الأولى بالفعل التي أرى الريف فيها جيداً . لا بد من كلمة حول ما شاهدته هناك أعرف أن بعضكم قد يقول وما علاقة كل هذا بالحرب التي جرت في بر مصر ، وما دار حولها من قصص وحكايات . ستكون الجواد الرابح لكل كتاب القصة والرواية من هواة مغازلة السلطة وكل سلطة إلى أن تقوم حرب جديدة . ولكني سأكمل رحلتي . في البلد كان حرصي شديداً لأسباب لا أعرفها على مشاهدة أهل مصري ، الأب والأم وإخواته البنات . كنت أعرف الكل من قبل ، أعاد مصري خلقهم لي ، من خلال حكاياته الطويلة في ليالينا . أنها المرة الأولى التي ألمس فيها والد مصري . عرفته مرتين ، مرة من كلام مصري ، وهذه هي المرة الثانية . قدم لي وجهاً لعبت به العواطف مثل الأنغام الواضحة . لا أدري لماذا وجدت نفسي مشدوداً لأمه . في اللحظة التي وقعت عيني عليها انبثقت من ذهني كلمة واحدة ، خرجت إلى شفتي دون أن أدري :

ـ فلاحة .

حاولت أن أتذكر كل ما أعرفه عن الفلاحة . تكلمت معها . كانت بداخلي رغبة حارقة أن أضع يدها على الشيء الإنساني الذي يربطني بابنها الوحيد . ردت عليّ ، تناوبت الكلمات والدموع . كل كلمة تنتزع من بئر العين دمعة العين ومن الصدر الخاوي انتحابة مضطربة . كان صوت بكائها مثل هديل الحمام في البناني . اكتشفت أني أقف أمامها وأني غريب وأن البكاء أمامي عيب. حاولت أن تضحك، تبتلع دموعها، شوهت وجهها ابتسامة عكرة عجزت عن تبديد لحظة الحزن . في طريق العودة ، شعرت برغبة في البكاء ، لأن أهل مصري كانوا يريدون إظهار

حبهم لي بكل صورة من الصور . وبعد التطورات التي ستعرفونها فيما بعد . فكرت كثيراً ، هل من حقي اثبات ما فكرت فيه هنا ؟ أستأذنكم في فعل هذا . كنت أجلس أمام دوار العمدة . الليل غويط مليء بأصوات ريفية غامضة ، بدت كالرموز في حاجة إلى من يحلها لي . التحقيق يجري بالداخل وأنا جالس . الفكر مثل موج البحر يذهب ويجيء ، في الطريق إلى البلد رأيت مشاهد العذاب والبؤس الذي بلا حدود . ترحمت على بلدنا وعلى ما أصابها . قلت لنفسي متى يرفع الله الكرب والبلاء والغمة عن مصر ؟! لا أحد يعلم متى يحدث هذا . ولكني أعتقد أن الحال لا يمكن أن يستمر هكذا طويلاً ، ثم أين عدل الله في حكاية مصري كلها . لو كان هناك عدل لأعطى الفقراء ما يدافعون به عن أنفسهم . بيدهم الحق ، ولكن من قال أن الحق له قيمة في مواجهة القوة . الحق بمفرده عاجز . بندقية توجه طلقاتها للخلف ، إلى صدر الممسك بها . سيف خشبي مكسور . إن أهل مصري لا يملكون سوى أيديهم . العمدة قوي ، ويردد دائماً إن قوته من الله . ويبدو أن هذا صحيح . عموماً إن كان الله قد اختار صف الأغنياء وقرر أن يكون ربهم وحدهم فما على الفقراء إلا البحث عن رب لهم . من يدري قد يجدونه . ربما كان في انتظارهم منذ أن عرف عالمنا المسافات الضخمة بين الفقراء والأغنياء ، والتي تزداد اتساعاً كل يوم . قلت لنفسي ، ها نحن نعود من الميدان لنجد أن الزمن الدامي قد بدأ في بلدنا . هل عدنا من حرب لنجد أن حرباً أخرى في انتظارنا ؟ أعتقد أن ذلك كان خطأنا نحن . ففي الحرب التي أنهوها أمس فقط . كان العدو من الخلف ومن الأمام ، وكل رصاصة انطلقت في اتجاه سيناء السليبة كان لا بد أن تقابلها رصاصة أخرى إلى الخلف باتجاه مصر المقيدة والمحتلة بمحتل من نوع آخر ، بالفقر والتخلف والظلم والقهر . ولكننا لم ندرك . وجهنا كل الجهد نحو العدو الظاهر الواضح . تركنا الأعداء السرطانية الخبيثة ، تلك التي لا وجود لها أمام الأعين . كان لنا

العذر . تصورنا أن أهلنا سيقومون بتلك المهمة بدلاً منا ، ولكنهم خيبوا ظننا . وهذا ما يجعلها مهمتنا ـ الآن ـ التي لا بد وأن نقوم بها . لن يتأخر ذلك . التأخر معناه أن السرطان سيسري في جسم الوطن بشكل يصعب معه العلاج . من يدري ، فقد يصل استفحال الخطر إلى أن يصبح العلاج الوحيد هو استئصال الجسم كله ، والحلان أحلاهما مر .

إن الدرس الذي تعلمته اليوم جيداً أن بلدنا أصبحت مثل القطط تأكل أبناءها بدون رحمة ، وأن هؤلاء الأبناء أنفسهم يخرجون إلى الدنيا مثل السمك ، الكبير يأكل الصغير . لننظر جيداً إلى بلدنا الآن ، أنه عالم غريب ، ملغوم وآمن ، صعب وسهل . محب وحاقد ، متخم وجائع . ولكنه لنا على أية حال وهنا القضية . هذا البلد لنا كيف ومتى ؟ ولمن منا بالتحديد ؟ ألستم معي أن كلمة أن البلد لنا تحتوي الكثير من المعاني بداخلها .

كنت أتمنى . آه . وماذا نملك في تلك الأيام غير التمني . كنت أتمنى لو أن الحرب ما تزال قائمة ، لكي أحضر نقطة من دمي . آخر دم دافع عن تراب وادي النيل أختم بها آخر الفصل الخاص بي في هذه الرواية . ذلك أن عصر الحروب انتهى . ويبدأ في مصر عصر الكلام ولأن الكلمات تشتعل من بعضها البعض ، فلن يعرف بر مصر سوى الكلمات . ومن جديد أقول كنت أتمنى . لندع كل هذا . أمامي مهمة واحدة ، وهي كيف أسكت نفسي . أمسك بيدي أمنعها من مواصلة الكتابة . فالصمت أجدى من كلمات تقال في عصر يعوم فيه الكل في بحار الكلمات .

יוסף אלקעיד
המלחמה
בארץ מצרים

الضـــابط

حمدت اللّه إني لم أكن أعرفه . لم أره أبداً . لم تقع عيناي على وجهه من قبل . أمس الأول حضرت إلى الوحدة . قدمت أوراقي وقابلني القائد . مر يوم واحد ، بعدها كلفت بهذه المهمة . يبدو إن الكـل يهرب منها لطبيعتها الكئيبة . كدت أن أعترض ولكني لم أشأ أن أبدأ وجودي هنا بالرفض والاعتذار عن مهمة ما . خاصـة وإنني عندمـا قدمت أوراقي إلى قائد الوحدة ركز على معنى واحد :

ـ ضابط عامل أو احتياط ؟

قلت بصوت عادي :

ـ احتياط يا أفندم .

النظرة على وجهه لم تكن مستريحة ، ثمة قلق بين العينين . قالـوا لي إن السفر بالشهـداء إلى بلادهم وتسليم جثثهم إلى أهليهم من صميم عملي كضابط للخدمة الاجتماعية . كنا ثلاثة في قسم الخدمة الاجتماعية بالوحـدة ، آنسة بـرتبة مـلازم أول وسيدة تحمـل رتبة الـرائد . وليس من المعقول أن تقوم احداهما بهذه المهمة . أخذت التعليمات ونزلت . من يوم حضوري إلى هنا والمشرحة هي عذابي الوحيد . في اليومين الماضيين كنت أشاهد حولها جموعاً من الناس حضروا لاستلام جثث . يبدو أن هذا منظر يومي ثابت . عندما نزلت لم أجـد أحداً حـول المشرحـة . دهشت

ولكني عندما قرأت عنوان الشهيد زالت دهشتي ، فهو ليس من أبناء القاهرة . فذهبت إلى قائد السرية ، وهو ضابط شرف برتبة نقيب . قدمت له نفسي ، صافحته وطلبت منه تعيين أفراد لكي يسافروا معي في هذه المهمة . ضغط على جرس بجواره طلب من المراسلة أحضار حكمدار مكتب السرية ، ليعين الأفراد الذين سيسافرون معي بالجثة ، وحسب التعليمات أتى الجندي المسؤول عن عناوين أفرادالقوة من مكتب السرية ، ومعه العنوان الرسمي للشهيد على ورقة من أصل وصورة . المفروض أن يسلمني الأصل واوقع له على الصورة . تسلمت الأصل . وأنا أوقع سألته عرضاً :

ـ ألا تعرف طريق الوصول إلى بلدته ؟

قال باقتضاب :

ـ لا .

أكملت بطريقة أهون بها المسألة على نفسي :

ـ من يسأل لا يتوه .

تحرك الجندي ، عاد ومعه حكمدار مكتب السرية . قالا معاً . إنهما يستأذنان في سفر جندي ، صديق الشهيد معي إلى بلده . كان الصديق أقرب الناس إليه ، وهو يعتقد إنه يعرف عنوانه . سألت :

ـ هل هناك ما يمنعه من الحضور ؟

ـ بالعكس إنه يرجو الذهاب معك .

في هذه اللحظة دخل علينا جندي بلباس الميدان ، حيا الضابط وحياني ، قال إن هناك ظروفاً قاسية تدفعه إلى طلب السفر معنا إلى بلد الشهيد . سأله قائد السرية :

ـ هل أنت بلدياته ؟

ـ لا .

ـ إذن ما سبب اصرارك على السفر ؟

ـ ظرف خاص .

أفهمه الضابط بأنه لا يمانع في سفره . المشكلة بالنسبة له إنه ليس من قوة الوحدة . فهو منذ ترحيله إلى الميدان يعد ملحقاً على مستشفى الفرز الميداني رقم واحد ، وهي الجهة الوحيدة التي تملك الموافقة على سفره في مهمة رسمية أو عدم الموافقة . ثم إنه حضر إلى الوحدة في عمل آخر ، وهو أخذ كميات من الدواء من المستودع الرئيسي . فهل يؤخر الدواء لحين عودته ؟ رد عليه جندي الميدان ، قال إن الدواء سيتأخر ثلاثة أيام . ثم ما المانع من سفره بدون شكل رسمي ؟ وهنا وافق الضابط . خفت أن لا يكون له مكان في السيارة معنا . فكرت في معارضة الشرطة العسكرية ومضايقتها . ولكن ما دام هو الوحيد الذي يعرف الشهيد ، وربما يعرف أهله والطريق إلى بلده فوجوده معنا أحسن من الجري والتوهان في بلاد اللّه الواسعة ، خاصة وإن وصولنا هناك سيكون بالليل . كانت مهمتي الأولى ويهمني نجاحها ، تم تعيين جندي آخر وحكمدار وسائق سيارة وميكانيكي مدني لإحتمال إصابة السيارة بعطل في الطريق . وأخذت قراراً من مكتب السرية بسفرهم معي في المهمة وعمل التصريح الخاص بهم . خرجت من مكتب السرية . وكان معي صديق الشهيد . كان يبدو عليه اضطراب واضح للعين . لم أهتم باضطرابه قلت إن السبب في حالته هو حزنه على زميله . من يدري ربما يكون قد أستشهد بين يديه في الجبهة . ذلك موقف إنساني صعب من كل الوجوه . جلسنا ننتظر بعض الأوراق . نطقت ملامح وجهه بمعان أخرى غير الحزن . رحت أرصدها وأفكر ، هل هي اضطراب ؟ رهبة ؟ حزن ؟ يده اليمنى كانت ترتعش . أتذكر ذلك جيداً كان يريد أن يقول لي شيئاً ما ، ولكنه تردد ، أو لعلني لم أقترب منه أو لم أشجعه مع إني ودود أقترب من الناس بسرعة وأختصر المسافات بيني وبينهم في لمح البصر ، ودونما أية تعقيدات . سكت ، تصورت إن

صورتي كضابط جديد أرهبته . كنت غبياً ، كانت الانفعالات والعـواطف تلعب على وجهه . وكان يفرك يديه في بعضهما ، حتى كاد الدم ينحبس فيهما . ثم خبط يده في رأسه بشكل عصبي . قلت له :

ـ هل هناك شيء يا دفعة ؟

ابتعدت شفتاه عن بعضهما ، خرج من فمه هواء ما قبل الكلمات . أما الأحرف والأصوات التي تعبر عنها ، فقد ماتت على لسانه ، لم ينطق ، من ناحيتي لم يكن لدي وقت لأهتم بما سيقولـه . تركتـه ومشيت . طول الوقت بدا متعباً يحمل ثقلاً على كتفيه ، بداخله سر ، أمـر ما لا بـد وأن يقوله . بعد وصولي إلى البلد ، ومعرفتي الحكايـة من الألف إلى الياء ، لمت نفسي ، ندمت . قلت : ليتني سمعته . ومددت له يدي ، أعطيتـه قلبي . ولكن هل كان هذا سيغير من الأمـر شيئاً ويحـول دون حدوث مـا حدث ؟ لا أعتقد . المسـألة أكبـر وأبعد من هـذا . ناديت على العـريف حكمدار الجماعة التي ستخرج معي . طلبت منه التأكد من وجود أمانات الشهيد .

أكمل صديقه :

ـ ولا تنس صور مصري التي التقطت له في الوحدة .

سألته :

ـ مصري من ؟

قال :

ـ الشهيد .

تصورت إن مصري هو اسم الشهرة ، وإن الاسم المدون في أوراقي هو الاسم الأصلي .

سألته :

ـ مصري هو اسم الدلع ؟

ـهل يعرف الفقراء أسماء الدلع ؟
استدرك موضحاً :
ـ الاسم المدون في أوراقك هو الصحيح . قلت مصري مجازاً . أليس كل أبناء بلدنا اسمهم مصري ؟

بدا تصرفه عادياً . ولكنه عندما حذرني ونحن في الطريق إلى البلد ، من ألا أذكر أي شيء عن اسم مصري ، أدركت إن في الأمر ما لا أعرفه . وإن كنت لم أعط الحكاية من الأهتمام أكثر من هذا .

صعدت إلى المكتب ، سألت رئيسة القسم عن الاجراءات الباقية . قلت لها إن كانت لديها تعليمات ثابتة ، في كتب ، أو نظام عمل ، أين هي ؟ رجوتها أن تعطيني أياها حتى أتصرف بشكل سليم . ابتسمت وقالت لي ، إنه لا توجد كتب ولا تعليمات مكتوبة ، وهم يعرفون ما يتبع في مثل هذه الحالات من الذين خدموا قبلهم .

أحضرت لي ورقة وقلماً . طلبت مني كتابة الاجراءات . قلت لها إن ذاكرتي قوية ولن أنسى أي اجراء . قالت بلهجة العارف :

ـ كلهم يقولون الكلمات نفسها وأثناء التنفيذ ينسون الكثير .

أذعنت وبدأت الكتابة . قالت :
ـ الوصايا العشر لدفن شهداء الواجب بالشكل اللائق بهم .

في حالة استشهاد فرد من القوات المسلحة من الجنود وصف الضباط تتبع التعليمات الآتية :

(عرفت فيما بعد إن للضباط اجراءات خاصة غير تلك التي تتبع مع ضباط الصف والجنود وهي تختلف كثيراً عنها) .

١ ـ التأكد من وجود شهادة أو إقرار الإستشهاد على النوذج المعد لذلك من إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة . وأن يكون النموذج

مستوفياً البيانات وموقعاً من شاهدي عيان ومعتمداً من أركان حرب الوحدة وقائدها وموضحاً به ساعة وتاريخ ومكان الإستشهاد ملخصاً ظروف الإستشهاد .

٢ ـ إن لم تكن هناك شهادة بسبب ظروف العمليات يعمل مجلس تحقيق بمعرفة اللجنة الشهرية يؤكد الإستشهاد ويستوفي البيانات السابقة .

٣ ـ الحصول على عنوان الشهيد في ورقة رسمية معتمدة من مسؤول برتبة ضابط أو مساعد على الأقل . فالعنوان هو الدليل الوحيد للوصول إلى أهل الشهيد بسرعة وأن يؤخذ من آخر دفتر عناوين ، ويستحسن أن يكون الدفتر الذي أنشيء في ظل ظروف العمليات فهو أقرب إلى الدقة عادة .

٤ ـ طلب صورة من إقرار المقاتل والمدون بخط يده . والذي يقر فيه لمن يصرف مستحقاته المالية في حالة الوفاة أو الإستشهاد . وإن وجد في ملفه أكثر من إقرار يؤخذ بآخر إقرار .

٥ ـ تسليم الأمانات التي وجدت مع الجثة بعد الإستشهاد بموجب محضر رسمي وتسليمها للمستفيد مع الاكتفاء بتوقيعه على المحضر الأول .

٦ ـ صرف نفقات الجنازة والإعانة المالية العاجلة . المقدرة بموجب التعليمات المستديمة بالنسبة للصف والجنود من الشؤون الشخصية وتسليمها لأهله .

٧ ـ إستخراج شهادة وفاة وتصريح دفن للشهيد من أقرب مكتب صحة لوحدته بناء على إقرار الوحدة بالإستشهاد .

٨ ـ التأكد من تجهيزه للدفن وتكفينه في مشرحة الوحدة ووضعه في صندوق مغلق جيداً قبل التحرك إلى بلدته .

٩ ـ في البلد يتم التوجه إلى المسؤولين المحليين ، والذهاب فوراً إلى

مقابر ثم التعرف على أهل الشهيد ، واحضارهم بمفردهم وفي وجود المسؤولين . وهناك يحمل الشهيد من سيارةالجيش إلى المقبرة مباشرة ودون أن يفتح الصندوق أحد .

١٠ ـ بعد العودة من المهمة ، يدون ضابط الخدمة الإجتماعية تقريراً بنجاح الخطوات التي قام بها . كما يدون توصياته ورأيه وإقتراحاته للأخذ بها مستقبلاً ومن حقه إقتراح بعض التعديلات لخطوات العمل .

أخذت الأوراق التي دونت بها الخطوات العشر ودرستها بعناية وقمت بعمل خطتي ، استدعيت الحكمدار المسافر معي ، كلفته باستخراج تصريح الدفن وشهادة الوفاة ، وأخذ صورة طبق الأصل، معتمدة ومختومة من اقراره بمن تصرف لهم مستحقاته المالية والإشراف على تجهيزه للدفن . مع العلم بأنه لا يجب غسل الشهيد . توجهت إلى الشؤون الشخصية لكي انتهي من الأمور المالية . وكلفت جندياً آخر بالحصول على تصريح مرور السيارة وأمراً كتابياً لملء خزان السيارة الأساسي وخزانها الإحتياطي بالوقود . اتفقنا على أن نلتقي أمام المشرحة بعد ساعتين . خرجت . شاهدت الشوارع المبطنة بالفتيات والشبان . آلاف من الناس يسعون في حياة كل يوم ، أدركت بعد المسافة بيننا وبينهم . تذكرت إني على موعد بعد الإفطار مع الأصدقاء لأحكي لهم عن يومي الأول في الخدمة العسكرية كضابط ، أدركت إني لن أذهب إليهم إلا بمعجزة ، تتمثل في سفري وعودتي قبل الإفطار ، وأعتقد صعوبة حدوث هذا . قررت الإتصال بواحد من الشلة والإعتذار عن الموعد ، بسبب سفري في مهمة لا أستطيع الكشف عنها إلا بعد العودة ، ولا يمكنني تناولها بالحديث في التليفونات خاصة في الظروف الدقيقة التي يمر بها الوطن . سا سأقوم به عمل عادي ولا بأس من تحويله إلى عمل غير عادي . كان موعدنا في شقة مفروشة بالعجوزة ، استأجرتها مع ثلاثة من

الأصدقاء . نكون شلة واحدة ، واحد في الجيش مثلي ، وواحد أعفى من الخدمة العسكرية لأنه وحيد أبويه وكل اخواته بنات ، والرابع تهرب من التجنيد بطريقة لا أحب الحديث عنها . لم يكن بالشقة تليفون وكل منا يستخدمها كما يحلو له ، على أن يخبر الباقين مقدماً ، فلا يذهب أحد منا . سأتصل بأحدهم بعد عودتي للأعتذار . فكرت في الذهاب إلى بيتنا لاحضار غيارات داخلية وبيجامة وماكينة حلاقة وفوطة . ولكني ترددت في الذهاب . قال لي الكل إن المهمة في بلد الشهيد لن تستغرق أكثر من ساعة بل قد يتم الأمر في دقائق ، سأرتبط في أذهان أهل الشهيد بعودة ابنهم إليهم في صندوق مغلق ، لهذا بمجرد أن أعلن عن رغبتي في السفر لن يتمسك بي أحد . تذكرت حبيبتي البيضاء الممتلئة ، البضة ، والأمسية الرائعة التي كنت سأقضيها معها في شقة العجوزة بعد استئذان أفراد الشلة واحداً بعد الآخر . يغمزون لي بأعينهم متمنين لي أمسية ناعمة فوصلت إلى حافة غضب حقيقي . نفخت في غيظ . الإتصال بها مستحيل ، وعدم ذهابي في الموعد معناه إنه أمامي شهور طويلة من الخصام والعتاب وتقديم الأعذار وشرح الأسباب . كان عزائي طبيعة المهمة . في المكاتب وجدت موظفين مدنيين وضابطاً يجلسون في مكاتب فاخرة تحت أقدامهم سجاجيد تغوص فيها الأحذية فلا يبدو منها شيء ، وبجوار المكاتب مدافىء يشع منها ضوء أحمر رغم إن الشتاء لم يحل بعد وبجوارهم تليفونات ترن فجأة ، تحمل لهم كلمات عن الصحة والحال وأسعار اللحم ووعود بعمل وساطات للحصول على كميات من الدجاج ، وآخر سعر وصل إليه الدولار في السوق السوداء والسؤال عن أرق مكان لقضاء سهرة ممتعة . قدمت لهم الأوراق التي أحملها والتي تؤكد إن أحد أبناء مصر استشهد أمس الأول في سبيلها . كنت أتصور إنهم سينظرون في الأوراق بقدر كبير من الاحترام وسيسهلون لي مهمتي ذات الطابع الخاص . دهشت . الموظف الجالس خلف النافذة المغطاة بشبكة من الحديد نظر

في الأوراق بغضب ، ثم نظر في ساعته ، ونفخ في الهواء :

ـ حضرتك متأخر .

رحت أقرأ ملامح وجهه وهو يقرأ الأوراق ، لم يبد عليه أي تغيير . أعاد الأوراق ، ثم قال لي : إن خاتم شهادة الإستشهاد غير واضح ولا بد من ختمها من جديد . أفهمته إن الوحدة في الخطوط الأمامية . قال كلمة واحدة :

ـ ولو .

شرحت له ، الشهيد مضت عليه ثلاثة أيام . أشار بيده طالباً مني السكوت وأشار إلى باب صغير على يمينه ، وطلب مني عرض الأمر على رئيس المكتب الذي كان جالساً بيده مسبحة طويلة وشفتاه تتمتمان بصوت لا يسمعه أحد سواه . كلمته ، لم يرد على إلا بعد انتهائه من كلماته . ظلت المسبحة في يمينه تعبث بها أصابعه . مد يده اليسرى ، أمسك بالأوراق ، نظر وطالت نظرته ، وتحركت شفتاه من جديد . تمنيت أن تكون حركة الشفتين لقراءة ما أمامه . بعد أن عرف سبب اعتراض الموظف قال :

ـ معه حق .

قال إنه ينفذ تعليمات ثابتة عنده . الحوار الذي دار بيني وبينه كان مرهقاً ولم يكن ضرورياً . ونظراً لدقة الظروف وطول الحوار ، قدم لي تسهيلاً . طلب مني كتابة إقرار بأن الختم الموجود في الشهادة صحيح ، وأن أدون اسمي وكل بياناتي في الإقرار وأن ظهر إنه غير صحيح ، أتحمل المسؤولية كاملة . عدت إلى المستشفى متعباً . جلست في انتظار عودة من ذهبوا لاحضار الأوراق المطلوبة . اتصلت بأحد أصدقائي واعتذرت عن الموعد . اكتمل الجمع . وضعنا الصندوق الموجود بداخله الجثة في السيارة من الخلف . جلس بجوار الصندوق الميكانيكي والفردان المعينان معي . جلس بيني وبين السائق صديق الشهيد. كان الوقت عصراً ، قبل

خروجنا من القاهرة حسبنا الوقت ، سيكون وصولنا إلى بلد الشهيد بعد الإفطار. سنفطر في الطريق، بالتحديد في طنطا . ثم نتحرك إلى البلد لنصل بعد الإفطار بوقت كاف . تحسست جيبي ، تأكدت من وجود ورقة العنوان معي . كان المشوار شاقاً . السيارة متعبة ، وجو الخريف الذي لا طعم له يحيط بنا من كل ناحية . أصبحت السيارة على الطريق الزراعي مصر ـ إسكندرية ، الشمس الصفراء الباهتة اللينة في وجوهنا . السيارة بطيئة . قال السائق مدافعاً عنها : إنها سيارة ممتازة وتستطيع أن تسبق أي سيارة ، مد يده ، أراني عداد السرعة ، وكان آخر رقم فيه ، مائة وستون كيلو متراً . ولكن قائد الحملة ، تفادياً للحوادث وخاصة إن كل مشاوير السيارة على الطرق السريعة ، قام بتخفيض السرعة ، جعل حدها الأقصى ستين كيلو متراً فقط . مع رجرجات السيارة غفوت . ركنت رأسي لزجاج الباب المجاور لي . ويبدو إن الجالس بجواري نام هو الآخر . مما دفع السائق إلى إيقاظنا معاً . أعطانا درساً مطولاً في أصول الجلوس بجوار السائق في الطرق السريعة . قال إن نوم من يجلسون بجوار السائق هو السبب في كثرة الحوادث . وإنه يعتمد في سفرياته الكثيرة . على أحاديث من يجلسون معه . وإنه يكون في يقظته التامة إن كان الجالس متحدثاً لبقاً وكلامه شيقاً وأكثر الكلام تشويقاً الحكايات والحواديت ، والقصص العجيبة . أما الكلام ، في العلم والسياسة فيجعل النوم يكبس عليه فوراً . سألته وإن لم يجد راكباً يجيد الحديث . ضحك . هدأ من سرعة السيارة . خلع الطاقية العسكرية من فوق رأسه . وضعها على فتيس السرعات وبدأ الحديث . قال إنه تعلم قيادة السيارات على يد سائق تعلم في معسكرات الإنجليز في الزمان القديم . علمه ، إنه أن تصادف سفره بمفرده وغلبه النوم من السير ورجرجة السيارة . فهناك تعليمات ينفذها وهي محفوظة مثل جدول الضرب . أولها أن يكلم نفسه ، يحكي قصة من قصص جدته العجوز في ليالي الشتاء الطويلة . والحكايات لا تصلح لكل

الوقت . ولمجرد أن يكتشف انصرافه عنها يصل إلى المرحلة الثانية ، وفيها يصفر بفمه بعض الألحان السهلة ، التي يغنيها بسهولة ويغني لنفسه بصوت مرتفع يكفي لإيقاظه من النوم . مللت السماع وإن كان الكلام جديداً بالنسبة لي ، ايمعه لأول مرة في حياتي . ولكي نصل إلى ختام حديثه سألته : وإن فشلت كل هذه المحاولات في طرد النوم ماذا تفعل ؟ قال إن سؤالي وجيه ويكشف عن ذكاء من النادر أن يجده عند ضابط سواي . قال : بعد فشل محاولاته تبقى المحاولة الأخيرة ، سألني :

ـ هل تعرفها ؟

قلت بدهشة :

ـ طبعاً لا .

قال إنه سيحكيها لي والأجر والثواب عند اللّه وحده . المحاولة الأخيرة هي شد شعره. يمسك عجلة القيادة بأكثر اليدين مهارة. اليسرى أو اليمنى وباليد الأخرى شد خصلة من شعره . لم يوقفه عن الحديث سوى طرقات من صندوق السيارة الخلفي . أشاروا لنا ، طلبوا التوقف . نزلنا . كان الجالسون في الخلف يسبحون في بحار من العرق . يصحبه أحمرار في وجوههم . قالوا إنهم وصلوا لدرجة الأختناق ، وإن الصندوق الموجود به الجثة تنبعث منه رائحة أفسدت الهواء الموجود في العربة وإن بعضهم تقيأ . أدركت صعوبة الجلوس مع جثة شهيد استشهد منذ ثلاثة أيام قضاها في مشرحة ميدان . ثم نقل إلى مشرحة المستشفى وهي غير مجهزة رغم إني عرفت اليوم من الجندي المعين للأشراف عليها إنها استقبلت شهداء أربع حروب مرت على مصر . استرحنا جلسنا في الهواء . وغير السائق الماء للسيارة . في المسافة الباقيةلم يعرف الصمت طريقه إلينا . كان المتحدث هو السائق . حديثه هذه المرة عن سفرياته الكثيرة مع الشهداء والموتى من المرضى العاديين بالمستشفى وحتى في هذه الناحية حول الحديث إلى نوع من الفخر ، قال إن أهم ما يميزه هو قوة أعصابه

الحديدية . ولكي يدلل على ما قاله ، أكد إن سائق هذه السيارة ، جن من كثرة الرحلات مع الشهداء والموتى وإنه الآن نزيل القسم الداخلي بمستشفى الأمراض العقلية وإن المرض بدأ عنده بذهول أصابه من مشاهدته للحظات معرفة أهل الشهيد أو الميت بالخبر وتصرفاتهم أثناء الدفن . أما هو فقد أكمل عامه الثالث في هذا العمل الكريه وعقله سليم . آخر ما قاله كان عن الشهيد الذي نسافر به اليوم . حكى ذكرياته معه ورأيه فيه وطلب له الرحمة من رب العباد. سألني عن بلده هل هي قرية؟ بندر؟ مركز؟ قلت إنها قرية. قال إن أهل القرى كرماء وعندهم شهامة. وإن كان حزنهم صعباً ، اقترب المغرب . لم يكن معنا راديو . ولكن عندما أذن المغرب عرفنا إن وقت الإفطار قد حان من حركة الطريق والهدوء الذي هبط فجأة . اتجهنا إلى أول مدينة قابلتنا لكي نفطر . لم أكن متحمساً لفكرة الإفطار في مطعم . نزل جنديان اشتريا طعاماً من سوق المدينة . رفضت الجلوس في أحد المقاهي . جلسنا في السيارة . أكلنا بسرعة وشربنا شاياً أحضروه لنا من مقهى قريب. استأذن الجندي والميكانيكي في الذهاب إلى مقهى قريب لتدخين الشيشة . طلبت منهما العودة بسرعة . ثم تحركنا في اتجاه البلد ، وكان ظلام الليل قد استتب خارج المدينة . بدأ صديق الشهيد يستعيد وصف الطريق من ذهنه . كنت خائفاً أن نتوه . وصلنا إلى النقطة التي من المفروض ترك الطريق السريع فيها ، ونتجه إلى طريق ترابي جانبي . كان الطريق محفوراً في ذهن صديق الشهيد والعلامات التي قدمها لي من الصعب ، عدم معرفتها . قال لي سنجد كوبري علوي بجوار مدرسة ابتدائية ملحقة بمحطة السكة الحديد ، خلف المدرسة مساكن العاملين في السكة الحديد ، وأما المساكن مزلقان تعبره إلى الطريق الترابي . عندما أصبحنا على الطريق الترابي وجدنا إننا أسلمنا أنفسنا لعالم مكون من طبقات الظلام . توقفنا . نزل صديق الشهيد ، اتجه إلى المزلقان الذي كان ينبعث منه ضوء نار هادئة على الأرض يصنع

عليهـا الملاحظ شـاياً . سـألـه عن البلد . وبـدلاً من أن يجيبـه مـلاحظ المزلقان مد يده ، أشار إلى فلاح كان يجلس بجواره ، قال له إن حظه من السماء ، وإننا لا بد وأن نسعى في عمل خير في هذا الوقت المبارك لسبب بسيط إن الجالس بجواره ذاهب إلى نفس البلد ، وهو يجلس في انتظار اية وسيلة تقله ، سيركب معنا ويدلنا على الطريق . قام الفلاح ، نفض جلبابه فقد كان يجلس على الأرض العراء، أمسك به ملاحظ المزلقان وعزم علينا بالشاي الذي كان ينـطلق من براده وشش خـافت . شكرنـاه . ركب معنا الفلاح . قدم لنـا كلمات شكـر كثيرة ومتنـوعة وقـال إن السماء هي التي أرسلتنا له في هذا الوقت ، وإنه كان ينوي المبيت في المزلقان إن لم تأت سيارة . وطبعاً لن تأتي سيارات حتى الصباح .

ـ هل المسافة بعيدة ؟

قال :

ـ بسيطة .

ـ كم كيلو ؟

رد علي بمنطق آخر :

ـ ساعتان مشياً على الأقدام وربع ساعة بالسيارة .

تدخل السائق قائلاً إنه من خلال خبرته الدقيقة، يستطيع أن يؤكد إن المسافة في هذه الحالـة لا تقل عن العشـرة كيلو مترات . سـألت الفلاح ولمـاذا لا يتمشى ، خاصـة وإن الجو هنـا صحي والهواء نقي . ضحـك وقال ، يبدو إني لست من أهل الريـف ، وإني من أبناء المدن التي تسبح في بحار الأنوار الملونة من الغروب وحتى الصبـاح ، والمليئة بـالعساكـر المدججة بالسلاح لحراسة الناس والبيوت والدكاكين . أما هنا :

ـ لقد انطلقت ذئابها على كلابها .

لم أفهم ولكن الرجل قال لي إنه منذ وعى على الدنيا والحال هادىء

والكـل يعيش في سلام ومحبـة . في الفترة الأخيـرة ، ظهرت عصـابـات الخطف والقتل والسرقة في الليل . الحوادث أصبحت كثيرة . من يدري ماذا قد يحدث في المستقبل . هل كان أحد يتصور إن الريف الآمن بكل ما فيه من كرم وسماحة ومحبة يحدث به هذا ؟ بدا لي الرجل فلاحاً طيباً . استرحت له . ولكن كـل المتاعب التي حـدثت لنا بعـد هذا أتت منـه . انتهت حكـاياتـه عن العصابـات فحل علينـا صمت لم يكن يقطعـه سوى صوت السيارة المتحركة ببطء على الطريق غير الممهد . فجأة التفت إلى الفلاح وسألني .

ـ ذاهبون لمن في البلد ؟

ذكرت اسم والد الشهيد المدون في الأوراق معي . وكان الاسم قد علق بذهني من كثرة اخراجي للورقة وقراءتها . قال الرجل:

ـ إنه عمدة البلد وهو موجود .

ولأن السـائق يصر على المشـاركة في كـل الأحـاديث . أشـار إلى صندوق السيارة وقال للفلاح :

ـ البقية في حياتكم .

خبط الرجل صدره بفزع :

ـ بعد الشر . من ؟ !

ـ ابن العمدة . .

ـ لم يكن للعمدة أبناء يعالجون في البنادر . أم هو حادث ؟

صاح فيه السائق بغضب :

ـ أي حادث . إنه شهيد .

تساءل الفلاح ؟

ـ في الحرب ؟

ـ الحمد لله على إنك فهمت .

فكر الرجل في الأمر وظهر على وجهه الأهتمام . رفع يده فجأة :
ـ ولكن العمدة ليس له أولاد في الجيش .
خرج صديق الشهيد من صمته وسأل الفلاح :
ـ ومن أدراك ؟
ـ أنا متأكد .
ـ ونحن أيضاً متأكدون .

لحظة الصمت الطارئة لم تحمل الاطمئنان لأحد منا . بدأ الرجل قلقاً وكأنه فقد القدرة على الجلسة المريحة . ولهذا تساءل :

ـ كل أبناء العمدة الذكور أعفوا من التجنيد وفاتوا سنهم أصغر أبنائه وهو الوحيد الذي كان يجب أن يجند في البلد .

ـ متى شاهدته ؟
ـ صباح اليوم وسلمت عليه .
قال صديق الشهيد بمرارة :
ـ قد يكون للعمدة ابن لا تعلمون عنه شيئاً .
أدرك الفلاح السخرية في الحديث ، فقال بمرارة أكثر :
ـ من يدري ، ربما كان ابن العمدة ولياً ، قادر على أن يوجد في مكانين معاً في وقت واحد . ألسنا في زمن المعجزات ؟

وهكذا وجدت نفسي طرفاً في مشكلة من نوع غريب . عندما بدأ الفلاح ثرثرته قلت إنه رغي نقطع به الطريق ، ولم أتصور إن يوصلنا كلامه إلى مشكلة لم أتوقعها ، وبالتالي لا أعرف كيف أحلها . إن فشلت في مهمتي هذه سيترك هذا الفشل أثره على مستقبلي في الوحدة . ولكي أسكت أصوات القلق التي بدأت تتصاعد في داخلي ، ذكرت له اسم الشهيد نفسه . وصاح الفلاح غاضباً لأول مرة :

ـ الدلوعة .

أكمل :
ـ إنه هو الابن الأخير للعمدة يقولون عنه في البلد الدلوعة .
ـ هل هو الذي قابلته اليوم ؟
ـ هو نفسه .
ولاننا أسلمنا الرجل إلى دوامة من الأفكار ، تساءل بدوره :
ـ ولكن كيف أستشهد وهو في البلد .
قال صديق الشهيد ببطء :
ـ استشهد بالنيابة .
لم يفهم الرجل كلامه ، ولا الكلمة التي ختم بها صديق الشهيد جملته :
ـ بالتوكيل الشرعي الذي اعتمدته مصر .
أوقفت السيارة . نزلت وأخذت الفلاح معي . طلبت من السائق أن يترك نور السيارة مضاء . أخرجت أوراقي ، راجعت البيانات الخاصة بالشهيد ، اسمه ، اسم البلد ، عمل الوالد ، قال الرجل إن كل البيانات سليمة . ولكن الشاب الذي تقول إنه استشهد موجود في البلد . عدنا إلى السيارة . استأنف السائق السير ، خيم علينا صمت مشحون بالتوتر والقلق . حاول السائق أن يؤكد إن هذه الحكاية حدثت معه من قبل وإنها ليست غريبة عليه . صحت فيه ، توقفت الكلمة في زوره ، لم يكمل نصفها الثاني . طلبت منه الاسراع في سيره ، وسألت الفلاح للمرة الأخيرة :
ـ هل أنت متأكد ؟
قال إنه ليس مطلوباً منا سوىُ الصبر . وقال إنه سيحضر إلى الشهيد بنفسه وهو حي يرزق . سألت صديق الشهيد ، إن كانت البيانات الموجودة معنا سليمة . رد علي بطريقة غامضة :
ـ سنرى في البلد .

خانتني أعصابي . في الوحدة سألت عن كل المواقف المحتمل حدوثها ، وعن طريقة التصرف فيها . لم يخطر على بالي أبداً ، أن أذهب لكي أجد الشهيد الذي أحمله في صندوق مغلق حي . طلبت من السائق أن يتوقف . نزلت وفتحت الصندوق الخلفي . أمرت العريف أن يحرك الصندوق ، دهش من الطلب . قلت له إنى أريد التأكد من وجود الشهيد في مكانه . حرك الصندوق بصعوبة واقترب بوجهه من أحد فتحاته ، وأكد لي وجود الجثة في الصندوق وتساءل غاضباً ، وهل يتصور أحد سرقة الجثة ؟ لم تكن بي رغبة في الحديث قلت له أن يعطيني أمانات الشهيد الموجودة معه . فتحتها ، أخذت منها بطاقة تحقيق الشخصية المدنية . ناديت على الفلاح ، وفي ضوء السيارة قدمت له البطاقة . أخذها مني ، قربها من عينيه لدرجة إني خفت عليهما من البطاقة . خيل إلي إنه سيدخل البطاقة في جفني عينيه . قال بانفعال :

ـ هذه صورة مصري ابن خفير العمدة .

لم يكن الرجل يقرأ ، قرأت له بيانات البطاقة . الاسم المدون هو اسم ابن العمدة .

قال الفلاح ملخصاً الحكاية .

ـ الاسم لابن العمدة ، ولكن الصورة لابن الخفير .

تشابكت المعاني في ذهني ، وعصفت بي الحيرة . فكرت في العودة إلى الوحدة ، رائحة الجثة منعتني . وعندما امتدت يد الفلاح تشير إلى أنوار البلد وقال إننا وصلنا ، حسمت الأمر بداخلي . ذهبت إلى البلد . أمام دوار العمدة توقفنا . نزلنا . جلسنا في حجرة صغيرة بها بنادق وتليفون . قالوا : إن العمدة يصلي ومعه أولاده الكبار . الفلاح الذي كان معنا اختفى ثم حضر ليؤكد لي هامساً إن العمدة الصغير موجود في الداخل . أرسلت بطلبه ، حضر إلي شاب منعم ، سألته عن اسمه

وبياناته . جاءت كلها مطابقة لما معي من بيانات . رجوته أن يطلعني على بطاقتهاالشخصية . قال إن والده يحتفظ بها معه ليل نهـار منذ حوالي ثلاثة أشهر ولا يعطيها له لسبب لا يعلمه . أما عن موقفه من التجنيد فقد أكد لي إن حدود علمه إن تجنيده مؤجل لحين انتهائه من تعليمه . سألته : سألته : أين شهـادة التأجيـل ، قال إنهـا في المـدرسـة . قلت من الـذي سلمهـا للمدرسة ؟ أجاب إن والده هو الذي أحضرها وسلمهـا للمدرسـة . سألـه صديق الشهيد :

ـ هل رأيت شهادة التأجيل بنفسك ؟

ـ سمعت عنها ولم أرها ، ولكن لا بـد من وجودهـا لأني لم أذهب إلى الجيش .

حضر العمدة وخلفـه أبناؤه وبعض الخفـر . سلم علينا . أخـرجت أوراقي وبدأت أحدثه . أذهلني إنه لم يتأثر بالخبر . وكان كل ما يريده مني هو أن يأخذ الأوراق والأمانات والجثة وأن نمشي بسرعة . ضغـطت على أعصابي وسألته :

ـ هل الشهيد ابنك فعلاً ؟

لم يرد علي بسرعة . وقبل أن يتكلم أخذني صديق الشهيد ، خرجنا بجوار السيارة حكي لي الحكاية كلها ، سألته :

ـ وهل كنت تعرف ذلك قبل التحرك ؟

قال :

ـ بل قبل استشهاده .

كدت أضربه . أمسكت به ، ولكن يـدي تراختـا . انبثق في ذهني سؤال لم استطع الأجابة عليه أبداً . لماذا . لماذا لم ينبهني صديق الشهيد إلى هذه الحكاية المعقدة والصعبة قبل التحرك من مصر ؟ هل قصد هذا ؟ لقد أعتقد إنه يقدم خدمة للشهيد وأهله من وراء ما تم . ربما كان ما فعله

نوعاً من الوفاء ، وهذا يفسر اصـراره على الحضور معنـا ، رغـم إن الكل يتهرب من مثل هذه المهمات . هـدأني صديق الشهيـد . وقال إن المهم الآن هو مواجهة الموقف الغريب . حذرني من سلطان العمدة وجبروته . فهمت إنه مطلوب مني تفادي أي مضاعفات للموقف . كان متحفزاً كـأنه يستعـد لدخـول معـركـة . ولكن غيـر المـوقف دخـول فـلاح ممصـوص الوجه ببندقيةعلى كتفيه . كان يبكي ويصيح . تقدم مني قائلاً :

ـ أنا والد الشهيد .

لا أستطيع وصف موقف العمدة بالتراجع ، ولكن بالانهيار . حدث الموقف أمام عدد كبير من أهل البلد . وحول الدوار تجمعت البلد كلها . حاول العمدة إدخـالي بيته فـرفضت . طلب مني تحرك السيـارة فوراً إلى المدافن فرفضت أيضاً . قال لي إنني أتسبب في عمل تجمهر ضخم والبلد مليئة بالعصابات وحالات الثأر القديمة ومصر كلها تمر بظروف عصبيـة ، فنحن في حالة حرب وهو غيرمسؤول عن أي نتائج لهذا الموقف الخطير . كدت أن أعطيه الجثة والأوراق والأمانات وأجري . أجري عائداً إلى مصر وقـطرات الدمـع تنسال بـداخلي ولكن رعشة أصـابتني . تدخـل صـديق مصري ، رجاني الذهاب إلى مركز البوليس . هاج العمدة . ثار . قال إنه ممثـل الحكومـة في البلد . إن كانت هنـاك مشكلة فهو قـادر على حلهـا وذهابنا إلى البوليس ونحن في البلد الذي يحكمه إدارياً بدون تحويل منه باطل قانوناً . كانت أمامي ثلاثة حلول : أماتحويل منه باطل قانوناً . كانت أمامي ثلاثة حلول : أما أن أذهب إلى مركز البـوليس الذي تتبعـه القريـة لعمل اللازم . مشكلتي لها جانب يخص الجيش ولهذا فالتعليمات تقضي بالبحث عن أقرب نقطة شرطـة عسكريـة وهم يتولـون الأمر . ولكن كيف أبحث عن هذه النقطة في ليل منطفىء حالك السـواد ؟ أما الحـل الثالث فيتمثـل في عودتي إلى الـوحدة في مصـر . وهنـاك يتصـرف القـائـد في المـوقف . كنت محتاراً . أهـل البلد حسموا المـوقف أثناء حـديثي مـع

العمدة . كان الخفير قد خرج وتجمع أهالي البلد . ويبدو إنه حدثهم فزحفوا على الدوار . سمعت كلمات عن الرغبة في تذوق دم العمدة والانتقام والأرض والعرض والاصلاح الزراعي الذي تتم تصفيته الآن وضرورة ابلاغ البوليس بما حدث . اقترب شخص من العمدة . طلب منه التحرك بسرعة . وقبل أن يتحرك العمدة ، كنت أسرع منه . أخذت أفرادي وخرجت من حجرة السلاح . ذبنا وسط بحر من الناس . دهشت من كثرتهم ولا أعرف من أين حضر هذا العدد الضخم . وصلت إلى السيارة بصعوبة وخلال سيري واحتكاكي بالأجسام البشرية وصلني الكثير من الكلام . كانوا يطلبون مني ابلاغ المركز والسرعة في الحركة قبل أن يعتدي علي رجال العمدة . القضية ثابتة والادلة موجودة والعمدة متهم لأول مرة ، وإن تركت الجثة سأكون المسؤول أمام الدنيا . رجل واحد اقترب مني وأنا أحاول الصعود إلى السيارة . أفهمني الأمر . أرسل العمدة ابن الخفير بدلاً من ابنه إلى الجهادية . لم يعلموا إلا منذ لحظات ولا بد من كشف الأمر :

- إلى متى نسكت ؟

تساءل الرجل الذي بدا لي إنه نال قسطاً من التعليم .

- حتى في الحرب ، لقد رضينا بأن يفسدوا كل ما في مصر . الأرض والماء والهواء والناس . ولكن شرف الدفاع عن تراب مصر أمر آخر .

وضعتني كلمات الرجل أمام جريمة متكاملة الأركان . شعرت إن يدي ملوثتان بدم الجثة الموجودة في الصندوق . علي أن أتصرف . كانت الجريمة من نوع فريد ومبتكر ليست سرقة أو قتلاً أو حتى تزويراً في أوراق رسمية . جريمة لم يخترع لها اسم بعد لأنها لم تحدث من قبل في مصر أو في أي بلد من بلاد العالم . فعلاً لا بد من التصرف الفوري فما دام في

مصر أمثال هذا العمدة ، من يضمن أن يتكرر هذا . وأن تكرر من يدافع عن مصر مستقبلاً ؟ .

خرج العمدة ومعه رجاله ، شاهدت البنادق والعصي ولكن بحر البشر منعه من الوصول إلي . حضر صديق الشهيد ومعه والده . لا أعرف كيف استطعنا الجلوس معاً في المكان الضيق بجوار السائق . البكاء الخافت للرجل لم يتوقف إلا بعد أن قال له صديق مصري إننا معه ولن نتخلى عنه وإنه سيأخذ حقه . ذلك وعد مني ومنه . عند ذلك هدأ الرجل ، وإن كنت ما زلت أرى خطين من الدموع يلمعان خلال جريانهما في غابة تجاعيد وتجاويف وجهه الكبير . صحت في السائق أن يتحرك . وكمعجزات الحواة أفسح بحر البشر طريقاً للسيارة . ركب عدد كبير منهم على رفرف السيارة ومقدمتها ، بصعوبة أفسحوا مكاناً للسائق ليشاهد منه الطريق . وقبل أن تتحرك السيارة دفعها الناس بصدورهم فتحركت . انطلقت بعض الأعيرة النارية في الهواء . لا أعرف إن كان الهدف منها إصابة السيارة أم ارهاب الناس . واتجهنا إلى المركز .

في المركز وجدت الضابط النوبتجي شاباً في مثل سني تزين كتفاه نجمتين مثلي ، وأحد أبناء القاهرة ، وإن لم يكن من الحي الذي أسكن فيه . شرحت له الموضوع باختصار وطلبت منه اجراء تحقيق في الأمر . كنت مرهقاً وكان تأثير الإنفعال على وجهي . أمر لي بكوب من الشاي . تحدث معي . عرف القضية . استأذن في الإتصال بالمأمور نظراً لخطورة الأمر . كلفه المأمور باحضار وكيل النيابة . حضروا جميعاً . أخرجوا الأوراق . وفتحوا الأقلام ، وسمعت من يقول :

وبدأت أجيب على سواله :

سين : ما هي أقوالك بخصوص ؟

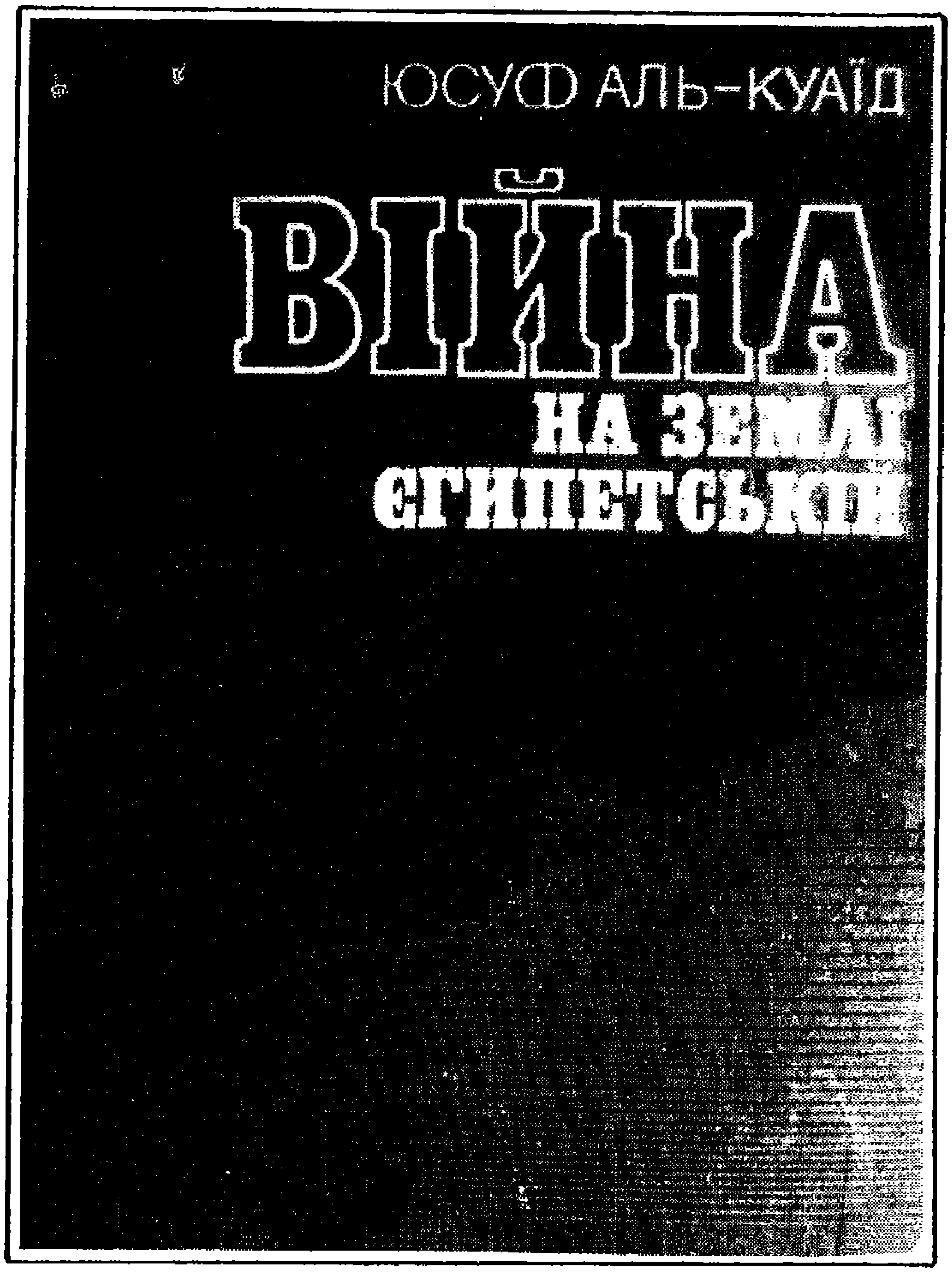
ЮСУФ АЛЬ-КУАЇД
ВІЙНА
НА ЗЕМЛІ
ЄГИПЕТСЬКІЙ

المحقق[٧]

تستهويني لحظة انتصاف الليل ، أتعامل معها على إنها حد فاصل بين يوم انقضى أمره ويوم لا نعرف عنه سوى اسمه . الدقات الاثنتي عشرة الرتيبة من راديو قريب مني ، ورائحة شتاء مقبل تنتشر في الليل . ها هو ليل الريف في الأيام الأخيرة من رمضان . مرت ليلة الأمس والليلة التي قبلها ولم يشاهد أحد ليلة القدر ، تبقى هذه الليلة وليلة أخرى قادمة . وقد يأتي العيد بعدها والناس تعلق كل أحلامها المؤجلة . لحظة انتصاف الليل استعد فيها للنوم . لا أعرف متى تغمض عيناي وأستريح من اليقظة الحارقة ، ولكن النوم يأتي في النهاية . هذه الليلة حضروا من المركز . طرقات كل ليلة ، استدعاء بسبب قضية قالوا إنها هامة وعلى درجة من الخطورة . تساءلت في نفسي : وأي قضية لم يقولوا إنها هامة وخطيرة ؟ سألت المخبر : هل أجرى الضابط النوبتجي في المركز تحقيقاً أولياً حول القضية ؟ أجاب بالنفي . قال إنه أجرى حواراً شفهياً ، ثم اتصل بالمأمور الذي حضر وأرسل لأخباري بالأمر . وأبلغ المستشار العسكري بالمحافظة ، وأنا أرتدي ملابسي سألت المخبر : هل هي قضية قتل ، سرقة ، تعدي ، هل هي حالة تجمهر ؟ ضحك المخبر قائلاً : إنه لا يعرف القضية بالتحديد . ولكنه أكد إنه منذ حوالي ساعة حضرت إلى المركز سيارة نقل موتى تابعة للجيش فيها شهيد ، مع السيارة ضابط وبعض

الجنود وهم قادمون من أحدى قرى المركز . نظراً لطبيعة الظروف العامة أسرعت في ارتداء ملابسي . بعد قليل كنت في الشارع . أعيش في مركز صغير من مراكز الوجه البحري . تنام فيه الحياة من العاشرة مساء ، وإن كانت تسهر في هذه الأيام بسبب رمضان . في المركز وجدت الضابط النوبتجي والمأمور وضابط المباحث . والقضية جاهزة كما يقولون . قابلني الضابط النوبتجي . جلست معه . طلبت منه أن يحكي لي ما حدث . ولأن ضابط البوليس الشاب كان منفعلاً حزيناً ساهماً ، فقد تكلم باسهاب . ولأنه ليس له فصل في الرواية ، يتكلم فيه مثلي الآخرين الذين تكلموا من قبل . فسأثبت هنا كل ما قاله وبنفس الطريقة التي سمعتها منه . حتى الأمور التي حكاها ولا علاقة لها بالقضية سأثبتها . استراح الضابط الشاب في جلسته وقال لي :

كنت ضابط نوبتجي المركز ، لم يكن لدي ما أعمله . وقت ما بعد الإفطار في رمضان ، يصبح بلا عمل . بعد آذان العشاء كنت أقف وراء زجاج مكتب النوبتجية . وضعت أنفي على الزجاج . البخار الذي خرج من أنفي غبش الزجاج . مددت يدي . رحت أخطط على الزجاج . نظرت من الخطوط . ومن خلالها شاهدت سيارة دفن موتى سوداء تسير ببطء . غرقت في أضواء أعمدة النور فبدت ملامحا واضحة . خرجت من مساحات الضوء وذابت في الظلام . قبيل المركز هدأت السيارة . وقفت في الساحة الواسعة أمام المركز . وجدت اللوحة الامامية الخاصة برقم السيارة في لون الصحراء، ورقم السيارة مدون بالأسود وتحته كلمة الجيش . قلت لنفسي : الحكاية لها علاقة بالحرب الدائرة الآن . خرجت من غرفة النوبتجية ، وقفت على باب المركز . فتح باب السيارة نزل منه ضابط شاب ، ملازم أول صغير السن . نزل بعده جندي بملابس الميدان وفلاح متقدم في السن ، فتح باب الصندوق الخلفي للسيارة ، نزل منه جنديان وشخص مدني ، بدوا جميعاً وكأنهم قادمون من رحلة

بعيدة . أمامي عمل يبدد فراغ الليل الطويل ، كان الطقس بـارداً ، ورغم هذا شاهدت حبات العرق على وجوه الحاضرين . قابلت الضابط بـود ، قدمت له ولمن حضروا معه المقاعد ، جلس هو أمامي :

ـ خيراً .

ظل صامتاً فترة ، تكلم ، أحسست إني أمام مشكلة غريبـة تحدث لأول مرة . والعمدة الذي يعد طرفاً فيها من الرجال مرهـوبي الجانب في المنطقة كلهـا . احترت مـاذا أفعل في مـواجهة هـذا الموقف الغـريب . حمدت اللّه إن المأمور يسكن بالقرب من المركز وإنه موجود الآن في منزله المقابل للمركز مباشرة . قلت لنفسي : إذن أسأله كيف أتصرف . المأمور كان قد دفأ نفسه وحجرته لسهـرة شتويـة وجلس يلعب الشطرنـج مع ابنـه الأكبر . استأذنت واعتذرت وحكيت له الحكاية . اضطرب في البداية ثم تماسك وكلفني بعمل الإجراءات القانونية . قال إنه سيحضر بعـد قليل . تحفـظت على الأمانـات وأرسلت لإبلاغـك الأمر ، وقبـل حضورك كـان المأمور في المركز .

بـدأت التحقيق ، أحضروا لي ضـابط القوات المسلحـة . قدم لي القضية باختصار : حضر من القاهرة لتسليم جثة شهيد معه ، فوجد الإنسان الذي يحمل اسم الشهيـد حياً يـرزق وإن الجثمان الـذي يحمله لشخص آخر ، ذهب إلى الجيش بدلاً من هذا الحي . كان الضابط مرهقـاً وجهه عبارة عن خطوط من التعب وقنوات العرق . تسرب إلى نفسي شك فيمـا يقـوله . ولكن أدهشني ذلـك اليقين الغريب الـذي يتحدث بـه . ناقشتـه طويلاً . . استعرضت أسماء الأفـراد الذين حضـروا معه . بـدأت بصديق الشهيد . جلس أمامي . حكى لي القصة من الكلمة الأولى وحتى الكلمة الأخيرة . وأنا حائر بين الدهشة وعدم التصديق . سألت صديق الشهيد إن كانت نعه أية أوراق خاصة بالشهيد ، قبل أن يتحول من ابن الخفير إلى ابن العمدة . أين بطاقته الشخصية القديمة أو كرنيه المدرسة ، طلب الإطلاع

على أمانات الشهيد قدمتها له . أخذ كرنيه تحقيق الشخصية الخاص بالجيش ، وفتحه . كان مخبأ بداخله ورقة مطبقة بعناية ، أخرجها وفردها أمامي . الورقة كانت استمارة نجاح في شهادة اتمام الدراسة الإعدادية . وضع صديق الشهيد إستمارة النجاح وبطاقة تحقيق الشخصية بجوار بعضهما . كانا مثل العملة ذات الوجهين يعكسان التناقض الأزلي بين ما يخفي وما يعرفه الناس . الكرنيه الذي يراه الجميع يقول إنه تحقيق شخصية لابن العمدة المجند في الجيش . ولكن بجواره ورقة أخرجت من داخله ، تؤكد إن ابن الخفير هو الذي ذهب إلى الجيش بدلاً من ابن العمدة ، في مهمة لا يجوز التوكيل فيها أو الأنابة مهما كانت الجهة التي تعتمد هذا التوكيل . وضعت يدي على أول الخيط الموصل إلى الحقيقة . في إستمارة النجاح كان مدرجاً رقم البطاقة الشخصية الخاصة بمصري وتاريخ إستخراجها . راجعته . على البطاقة الأخرى والتي وجدتها ضمن الأمانات والموجودة بها صورة مصري واسم ابن العمدة ، كانا رقمين مختلفين وتاريخ استخراج كل منهما يبدو مختلفاً ، وإن كانت الجهة التي حررتهما معاً واحدة ، وهي مكتب السجل المدني بالمركز . احترت ، هل استخرجت له أكثر من بطاقة . اعترف إن هذه الواقعة الصغيرة حركت في نفسي رغبة في العمل والوصول إلى حقيقة الأمر . في هذه اللحظة تنبهت . وصلت اليقظة الليلية إلى أقصى مدى لها ، أسرع القلب في دقاته ودفع إلى العروق دماً جديداً . خلعت الجاكت ، علقته على الشماعة . كنت أعمل بنصف حماس لأن القضية لم تكن واضحة في ذهني . أخرجت ورقة وكتبت فيها المطلوب سماع أقوالهم في القضية :

١ ـ والد مصري ، الخفير النظامي السابق والمحال إلى المعاش .
٢ ـ عمدة البلد .
٣ ـ نجل العمدة الأخير والذي يحمل الشهيد اسمه .
٤ ـ مندوب تجنيد المركز الذي كان يعمل مشرفاً على المكتب وقت تجنيد

الشهيد . وفي ورقة أخرى طلبت الوثائق الآتية :

١ ـ الإستمارات المحفوظة بمكتب السجل المدني بالمركز والتي استخرج بناء عليها كل من البطاقتين الشخصيتين مع احضار الصورة الفوتوغرافية للحفظ . والتي تحفظ مع الإستمارات في المكتب .

٢ ـ صورة عن شهادة ميلاد الشهيد وابن العمدة .

٣ ـ بيان بتحديد موقفهما من التجنيد وكل الأوراق والمستندات المرتبطة بتجنيدهما مهما كانت درجة أهمية هذه المستندات .

٤ ـ بيان بالمستوى التعليمي الذي وصل إليه الشخصان ، وإن كان أحدهما يتعلم الآن ففي أية مرحلة من مراحل التعليم .

٥ ـ عمل تحريات واسعة النطاق بمعرفة السيد ضابط مباحث القسم بنفسه حول هذا الموضوع ، ومعرفة أصول الحكاية من أولها إلى آخرها .

بدأت التحقيق . بعد وقت قليل حضر إلى مأمور المركز طلب مني الصبر والتريث لحين وصول المستشار العسكري في المحافظة . سألته : وما دخل المستشار العسكري ؟ أجاب بأن القضية لها جانبها العسكري وربما السياسي ولا بد من أخذ رأيه . أخبرته أن أمامي قضية متكاملة ، سأستمر في التحقيق ، وعندما يحضر سيرى ما يمكن عمله . استأنفت العمل . ولكنه حضر إليّ مرة أخرى ، ونبهني إلى ضرورة التصرف في أمر الجثة أما بالتصريح بدفنها أو انتداب طبيب شرعي لعمل اللازم إن كان التحقيق يتطلب هذا . تذكرت أني نسيت أمر الجثة ويجب التصرف فيها أولاً . استدعيت الضابط الذي حضر مع الجثة . اطلعت على الأوراق الخاصة بالاستشهاد . دققت وفحصت واستغرق ذلك مني وقتاً . كان لي العذر فالحادث الذي أحقق فيه جعل الشك يتسلل حتى إلى حقيقة أن يدي في كل منهما خمسة أصابع وأنه في آخر كل أصبع ظفر ، وأن السماء فوق الأرض . صرحت بدفن الجثة بعد الكشف الظاهري عليها ، مع التقاط

أكثر من صورة للوجه . الصور هامة وستحسم كثيراً من الأمور في التحقيق . ثارت مشكلة ، كيف يتم الدفن والبلد تعلم بما جرى ، وكيف نضمن ألا تحدث مضاعفات في البلد . فوجئت بالمأمور يفضل انتظار وصول المستشار العسكري ومندوب المحافظة وأخذ رأي التنظيم السياسي قبل الدفن . وقال لي : أنه يفضل ـ بعد موافقتي طبعاً ـ أن تودع الجثة في مستشفى المركز بدلاً من بقائها في السيارة بهذه الصورة ، وافقت على هذا . وفي تصوري أني بهذا أكرم جثمان شهيد استشهد دفاعاً عن أرض بلادي وعني وعن أهلي . المؤسف أنه ظهر بعد هذا أن تصرفي كان خطأ ، ولكن هذا موضوع آخر . حضر الشهود ، بدأت إجراءات التحقيق معهم . استمعت إلى أقوالهم . لن الخص ما قالوه . سبق لكم أن قرأتم ذلك بالتفصيل في الفصول السابقة من هذه الرواية . أعتقد أن مجرد الإشارة إلى ما قالوه يصبح نوعاً من التكرار والإعادة ، وهو ما ترفضه الرواية التي تتعامل مع قارىء قلق لا يجد وقتاً للقراءة . اعترف بعض الشهود بدون صعوبة . كان كلام والد الشهيد الحقيقي مؤثراً مبللاً بدموعه أشاع جواً إنسانياً وصلت عدواه إلى الجميع . لم يعترف العمدة ، لم أستطع استخراج كلمة واحدة منه تفيد بدوره في الحكاية . واجهته بالخفير وعرضت عليه الأوراق الموجودة معي . ذكرت له واقعة عودة الأرض إليه ومنها مساحة أرض كانت مع الخفير ، قال أن هذا لا علاقة له بالواقعة . أحياناً ، كان العمدة يعجز عن الرد ، ولكنه كان ثابتاً راسخاً ، ينظر إليّ بعينين عاريتين من كل ندم ، وصل صوته إليّ مستريحاً ، تفوح منه رائحة اللحم والسمن والدجاج والديوك الرومية . واللحم الذي ينام على وجهه ويديه يبدو طيات فوق بعضها البعض . عندما سألته عن موقف ابنه من التجنيد قال لي أن تجنيده مؤجل حتى يكمل تعليمه . طلبت منه شخادة التأجيل قرر أنه قدمها إلى المدرسة ولا يمكنه احضارها الآن . سألته عن الجهة التي استخرجها منها ، ارتبك لأول مرة . عاد ليقول أنه استخرجها

من الإسكندرية . واجهته ببطاقة تحقيق الشخصية العسكرية التي تؤكد أن ابنه مجند في الجيش الآن ، تلعثم ولم يرد . التحقيق مع العمدة كان مباراة من النوع الثقيل ، درنا حول بعضنا . حاصرته في أكثر من موقع ، كاد أن يعترف ، ولكنه رفض الإعتراف . قلت لنفسي : ماذا ينتظر ؟ لماذا لا يعترف ويريحني ويريح نفسه من عناء السؤال والجواب . بدا لي أنه ينتظر . وأن الإنتظار سيحمل له حلاً للموقف الصعب والعصيب الذي يمر به . كنت قلقاً ، أما هو فكان ينظر إلى ما يحدث على أنه أمر عادي . خلال التحقيق كانت تعذبني مسألة واحدة هي البحث عن العقل المدبر الذي أخرج الحكاية ، بكل هذا الإحكام الغريب ، صحيح أنه ترك بعض الثغرات في التنفيذ ، ثغرات من نوع بسيط لا تؤدي إلى انكشاف الأمر كله . وضعت يدي عليه أخيراً ، قالوا أنه المتعهد . أكثر من شاهد أشاروا إليه بهذه الصفة . فتصورت أن المتعهد هو اسمه الأصلي ، أحضروه لي بعد قليل . كان رجلاً أقرب إلى الإنسان اليائس ولهذا لم يتعبني كثيراً ، اعترف بكل ما فعله . وإن كان قد أكد لي أكثر من مرة ، بصدق حقيقي ، أن هذه العملية كانت الأخيرة وأن توبته نهائية . كان بودي اثبات دفاع المتعهد هنا لولا ضيق الوقت والرغبة في الاختصار . قال لي أنه مندهش من مجرد إجراء هذا التحقيق . إن إنساناً مصرياً ، شهماً وكريماً ، قرر أن يقدم خدمة لإنسان آخر . ألا تسمع الناس في الشارع يقول الواحد منهم للآخر : أفديك بروحي وحياتي . ألا تدعو الدولة نفسها ومن خلال أجهزتها الرسمية إلى التطوع بدمائنا لأخواننا في الوطن والدين وعندما نرفض التطوع تشتري الدولة دماءنا بالثمن . هذا هو حدث بالضبط ، ابن الخفير قرر أن ينوب عن ابن العمدة في مهمة وطنية قبل القيام بها برغبته الكاملة وإلا لكان اعترض على ذهابه بصورة من صور الاعتراض ولن يتعرض له أحد . ثم أن هناك نقطة لا بد من الحديث عنها ، لأن العمدة يرفض الإشارة إليها ، لأنه كريم المنبت والأصل ولا يحب الكلام بصوت

عال ، وعلى مسمع من الآخرين . إن العملية تمت بتبادل مصالح ، أنها مسألة اقتصادية اساساً ، ذهب مصري إلى الجيش بدلاً من ابن العمدة نظير حصول الخفير على أمرين أولهما : وظيفة ثابتة نظير أجر ثابت رغم أنه يحصل على معاش وأنت تعرف أن قوانين الدولة صارمة في رفض بل وتجريم الجمع بين المرتب والمعاش . أن العمدة هنا لا يحسن إلى الخفير ولكنه يتستر على إنسان يخالف القوانين ويضع نفسه تحت طائلة الجرائم المنصوص عليها في قانون العقوبات المصري ، ولا تنس أن العمدة هو المسؤول عن تنفيذ قوانين الدولة ، فالمخالفة هنا لها أكثر من بعد . أما الأمر الآخر الذي حصل عليه الخفير ، فهو مساحة من الأرض لا تقل عن الخمسة أفدنة . أن الإجراءات العادلة التي أتخذت في مصر أخيراً تقرر بوضوح أن من أخذت أرضه بمعرفة الإصلاح الزراعي لا بد وأن تعود إليه . العمدة عادت له أرضه ، بعد سنوات الاغتصاب وله الحق في استغلالها بنفسه ، يؤكد بذلك عدالة الإجراءات الأخيرة وظلم الإجراءات السابقة عليها . تصور أنت فرحة العمدة بعودة أرضه إليه بعد سنوات طوال من أخذها منه ظلماً وعدواناً . أن العمدة كتم هذه الفرصة في صدره وترك الأرض للخفير برغبته الكاملة . وهذا تصرف ضد الإجراءات العادلة الأخيرة . والعمدة ترك هذه الأرض نظير الخدمة التي تطوع ابن الخفير وطلب القيام بها ، دون أن يطلب أحد منه ذلك ، ثم أن ابن الخفير كانت أمنية عمره أن يذهب إلى الجهادية ، أقسم لك أنه حدثني عن ذلك بنفسه ، وأنه ذهب متطوعاً فرفضوه ، لا أدري سبب الرفض . الشاب كان طموحاً ، وطموح الطبقات الفقيرة في أغلب الأحيان يكون مدمراً لهم ، أنه يقضي عليهم عادة . كان الشاب ينظر إلى ما هو أبعد ، أن يكون ضابطاً في يوم من الأيام ، أن يزين كتفيه بالنسر والنجوم والسيف والعصا المتقاطعتين . ولهذا ذهب ، لقد ذهب لتحقيق هدف له هو الذي طلب الذهاب . هل سحاسب العمدة على تحقيق رغبة مواطن مصري ، لاحظ

أنه عمدة وأب . وهنا يتداخل الخاص والعام أنه كراعي لكل هؤلاء مسؤول عن تحقيق أمنية أي منهم . أن ما فعله مع ابن الخفير يدخل ضمن مهام وظيفته كعمدة للبلد . آخر دفاع أقوله وهو يهدم القضية من أساسها ، أن العمدة كان والده عمدة ، وجد جده عمدة ، أي أنه يدخل تحت تصنيف أولاد الناس . أما الخفير وابنه فهما من أولئك الذين يكملون عشاءهم نوماً ، وهو يعمل ويزرع في أرض العمدة . في هذه الحالة فالعمدة يمتلك الأراضي ومن عليها ومن يعمل فيها . إن ابن الخفير ملك للعمدة يتصرف فيه كيف يشاء ، أنهم يعملون في عزبة يمتلكها العمدة وله الحق في التصرف في كل ما في العزبة . أنا معترض على التحقيق لأنه محاولة للهروب من مواجهة الوضع الواقعي . إن الموقف الذي يجب بحثه هو : الآن بعد أن استشهد ابن الخفير نيابة عن ابن العمدة لأي منهما يحسب هذا الاستشهاد . لا بد من الرجوع للجهات المسؤولة ومصادر الفتوى . وقراءة التاريخ لمعرفة إن كانت هذه الواقعة قد حدثت من قبل ، وإن كانت قد حدثت فكيف تصرفوا في مواجهتها . لكي نحسم الأمر : من الذي استشهد ابن الخفير الذي ذهب بنفسه ، أم ابن العمدة الذي أناب شخصاً آخر مكانه لكي يستشهد بدلاً منه . ويترتب على حسم هذه المشكلة حل مشكلة أخرى ستطرح نفسها في الأيام القادمة ، وهي من الذي يصرف مستحقات الشهيد المالية ، العمدة أم الخفير ؟ حتى الآن رسمياً : الذي يصرف هذه المستحقات ـ وهي كثيرة ـ العمدة . ولكن ما ذنب الخفير . هل نعتمد على ضمير العمدة اليقظ ونطلب منه أن يصرفها ويعطيها أو جزءاً منها للخفير ، وهو حر في ذلك . أم نقسمها بين الاثنين . إن ما حدث لا يدخل تحت بند الجرائم ، لأنه عمل مشروع . ألا يجوز الإنابة والتوكيل في الإنتخابات ؟ . إن الإنتخاب عمل وطني وما دامت تجوز فيه الإنابة فهي تجوز أيضاً في الحروب . كل هذا مضى وانقضى ، ما فات مات . ولكن الذي يجب بحثه الآن ، هو من الذي تصرف له مستحقات الشهيد

المالية ، تلك هي المسألة . ثم لماذا التدقيق في كل الأمور . إنسان تطوع لخدمة إنسان بدمه ، ما دخل الحكومة في هذا ؟ نحن نسمع أن أيام الروتين انتهت ، وإننا نعيش عصر الحرية . إذن كل إنسان حر في حياته ، وفي دمه ، يفعل بهما ما يشاء . وهنا إنسان ضحى بدمه بدلاً من إنسان آخر : ما دخل النيابة . قرروا لنا من الذي يصرف الأموال أفادكم الله . واجهته بأن العمدة لم يعط الأرض للخفير ، وإنما استغله بصورة يحرمها القانون ، إذ أعطاه ثلاثة أفدنة بالمزارعة ، وهو نظام يستغل فيه العمدة الخفير . هاج وقال إن هذا الكلام غير صحيح ، وإن الذين أبلغوني به جماعة مندسة هدفها الوحيد هو إفساد الجو . قلت له إن الكلام عرفته من التحقيق ، وعلى لسان الخفير نفسه . قال أن هناك أعداء للعمدة ، تحركوا ضده بعد أن رجعت الأرض إليه ، هدفهم إفساد الحكاية . صرفت المتعهد العجيب ، الذي كان يدافع عن نفسه بكلامه هذا قبل دفاعه عن العمدة . ولكن كلامه عن الفصل في مشاكل الغد ، ومن الذي تصرف له المستحقات المالية ، أقلقني ، أوصلني إلى حالة من التشتت . أدركت أنه إن كانت هي الفصل فيما حدث وأصبح ماضياً فإن المهمة الأكثر صعوبة ، هي مواجهة ما سيحدث بعد ذلك . قد يكون مهما أن نسأل الآن : من الذي حارب ؟ ومن الذي استشهد ؟ ومن الذي صنع النصر ؟ ولكن السؤال الأكثر أهمية هو : من الذي حصل على التكريم الأدبي والمستحقات المالية ؟. إن السؤال ملح وهام . اكتملت القضية بين يدي . وعليّ الآن أن أجمع أشتاتها في الذهن وعلى الأوراق لكي أعرف رأسي من قدمي . أخذت أرتب الوثائق . بدأت بشهادتي الميلاد ، وفيهما حدث الإتفاق الوحيد بين ابن العمدة وابن الخفير كلاهما ولد في يوم واحد وفي بلد واحدة ، وهذا دليل ثابت . في الوثائق الأخرى اختلفت الظروف ، وذهب كل منهما في طريق مغاير للآخر ، في التعليم ابن الخفير ناجح ، ومتفوق ، ولكنه لم يكمل تعليمه لأن والده لا يقدر على

مصاريف التعليم . ابن العمدة تكرر رسوبه أكثر من سنة . في استمارتي طلب استخراج البطاقة الشخصية ، لكل منهما بيانات ، ولكل منهما صورة والصورتان مختلفتان ، ملامح أحدهما تقول أنه ابن عمدة وملامح الآخر تقول أنه ابن خفير . موقفهما من التجنيد على طرفي نقيض ، ابن الخفير معفى من الخدمة لأنه الابن الوحيد على إخوة كلهن بنات ، ابن العمدة مطلوب تجنيده ، ومؤشر في أوراقه ، أنه جند بتاريخ كذا ، وتم ترحيله إلى معسكر تجنيد الإسكندرية مع مندوب وحررت له استمارة السفر التي تحمل رقم كذا . البصمات على الأوراق تؤكد أنها بصمات شخصين مختلفين . ها هي الأمور كلها تكتمل . لم يبق سوى اعتراف العمدة الذي أصبح موقفه ضعيفاً جداً ، بعد شهادة المتعهد الذي يعد شريكاً له . العمدة فاعل أصلي . والمتعهد مساعد . واجهت العمدة بكل ما لدي من حقائق ، الجديد فيها والقديم ، فلم يتزحزح عن موقفه . رفض الإعتراف . أصدرت أمراً بالتحفظ على ابنه وعلى المتعهد . كان قراري نوعاً من الضغط المباشر أو الأخير على العمدة حتى يعترف بما حدث دون متاعب . ثار العمدة بعد القبض على ابنه ورغم هذا لم يعترف بكلمة واحدة . وبدا لي من جديد أنه ينتظر حدوث أمر ينقذه . عند هذا الحد توقفت عن العمل . قررت أخذ راحة . كان ما أنجزته صعباً وقاسياً وكان على انتظار نتيجة التحريات التي طلبت عملها . بعد الراحة ، حضر إلي ضابط المباحث وبدلاً من أن يقدم لي تقريراً مكتوباً أقرأه وأقرر ضمه إلى ملف القضية أو أعيده إليه ، إن كانت المعلومات الواردة فيه عادية ولا تفيد التحقيق ، فوجئت به يقول لي شفهياً ما يؤكد حدوث الواقعة الأساسية ، وهي إرسال ابن الخفير إلى الحرب بدلاً من ابن العمدة . ولكنه يطلب مني أن لا أتعب نفسي في هذه القضية ، فهي ستحفظ في النهاية لسببين : أولهما عرفه أثناء عمل التحريات ، هو أن العمدة رجل مسنود والقنوات التي توصله بعلية القوم وكبار الحكام سالكة وجاهزة ، في كل وقت وفي

أي ظروف ، صعبة كانت أو سهلة . وبمجرد بدء التحقيق وتحوله إلى قضية فهو متأكد من حقيقة واحدة وهي حفظ التحقيق ، مهما كان الأمر ، وهذا سيتم بأحد أمرين ، أما بناء على طلب والد الشهيد الحقيقي ، بأن تحفظ المسألة حفاظاً على ذكرى الشهيد ، واحتراماً لقدسية استشهاده ، أو أن تأتي تعليمات عليا ، بقفل التحقيق عند الحد الذي وصلت إليه . أكد لي ، أن الإحتمال الثاني مجرد تكهن من جانبه واجتهاد خاص في تفسير الأمور ، وأنه لم يسمعه من أحد ، ولكنها رؤيته الشخصية وفهمه للأمور . طلبت منه باختصار شديد أن يدون نتيجة تحرياته في محضر رسمي ، ويرفعه إلي عن طريق مأمور المركز . وسأتصرف بناء على ما في التقرير من وقائع ومعلومات . لم يكن العمدة موجوداً ، قيل لي أنه ذهب إلى البلد ليستريح وأنه مستعد للحضور في أي وقت ، وتحت يده أكثر من سيارة ، وفي منزله تليفون بخلاف تليفون العمدية الأميري الذي يوجد خط ربط بينه وبين كل تليفونات المركز والنقطة الثابتة والمديرية . حضر إليّ عدد كبير من فلاحي البلد . شكوا لي من مظالم العمدة التي لا تنتهي . أفهمتهم أنني أحقق في واقعة واحدة ، ولا يمكنني التطرق إلى غيرها ، ألا ما له علاقة مباشرة بحكاية مصري . ردوا عليّ بأن هذه مجرد واقعة من آلاف الوقائع التي يفعلها العمدة بهم . كل الفرق إن هذه الواقعة كشفت ووصلت إلينا . كان بينهم شاب ، قال أن جرائم العمدة كلها تندرج تحت عنوان الجرائم السياسية ، وإن التعامل معها من منطلقات نصوص القانون خطأ أساسي . إذ قد تمكنه الثغرات الموجودة في نصوص القوانين - وهي كثيرة - من الهروب والإفلات . من يدري ؟ قائمة جرائم العمدة طويلة . ليس هناك مبرر لارفاقها بالفصل الخاص بي في الرواية . وأنا واثق أن العمدة لم يتطرق إليها بكلمة واحدة في الفصل الخاص به ، وهو الفصل الأول . بعد أن فكرت في الأمر اعتبرت أن كل هؤلاء شهود اثبات وإن كان ذلك بشكل غير مباشر . خافوا من العمدة ، طمأنت كلا منهم أن الأسماء

ستكون معي ، لن يعرفها أحد . كانوا في نظري احتياطي شهود قد أحتاجه في معركتي مع العمدة .

حضر المستشار العسكري بالمحافظة ومندوب عن الشرطة العسكرية تصورت أن حضورهم تم بقصد التعاون معي في الوصول إلى حقيقة الأمر . ولكني فوجئت بمندوب الشرطة العسكرية يأخذ علي أنني بدأت التحقيق في قضية عسكرية مائة في المائة دون حضور الشرطة العسكرية أو أخطارها ، وهي جهة الاختصاص الوحيدة . قال أن الضباط والجنود الذين أعطوني أقوالهم سيحاسبون فقانون الأحكام العسكرية واضح وصريح من عدم التحقيق مع فرد من أفراد القوات المسلحة إلا بحضور مندوب من الجيش . قال أن القوانين تفرض أن يتم التحقيق من جديد بمعرفتهم وتحت إشرافهم ، رفضت هذا . قلت أن الواقعة كلها تمت هنا . بعيداً عن المعسكرات والجيش ولا بد من المضي في التحقيق حتى نهايته وليكن ما يكون .

فجأة أتت التعليمات صريحة وواضحة بقفل التحقيق واعتباره كأن لم يكن ودفن الجثة ، وقد دفنت بمجرد صدور التعليمات ودون الحصول على اذن مني بدفنها وقد سبب ذلك لي حزناً شخصياً . فقد دفن الشهيد على أنه ابن العمدة وليس على أنه مصري ابن الخفير . ورغم أن هذا الوضع نتج عنه أمران كلاهما أخطر من الآخر ، فكونه دفن على أنه ابن العمدة مسألة مضحكة . ذلك أن إنساناً آخر يحمل اسمه ونفس بياناته ما يزال يعيش حتى هذه اللحظة ، وهذا معناه أن هناك شخصين يحملان اسماً واحداً ، أحدهما مات والآخر ما يزال حياً وسيكون من الصعب مستقبلاً اثبات أيهما كان الأصل ومن البديل . أما الأمر الآخر فهو مصري : أين هو ؟ الواقع أن هذه المشكلة لم تنشأ بالدفن فقد وجدت منذ فترة بالتحديد منذ سافر مصري على إنه ابن العمدة وهو يواجه مشكلة اثبات وجوده . ويبقى المعنى الأساسي وهو أن مصري الذي سافر وجند

وحارب واستشهد حرم حتى من أن تعامل ذكراه معاملة الشهداء . حاولت إيضاح كل هذه الأمور ، ولكن المستشار العسكري للمحافظة رفضها ، قال أن بلادنا تمر بفترة مصيرية وحاسمة . أليست هذه أول مرة في التاريخ كله القديم والوسيط والحديث ينتصر فيها العرب ؟ إن حادثة مصري من الممكن أن تلقي بظلال كئيبة على النصر الذي انتظرته مصر والعرب آلاف السنين . طلب مني التفكير فيما سيقوله أعداء مصر عندما يعلمون بحكاية مصري . ثم هل هي حكاية ضخمة وتستحق كل هذا الإهتمام . إن الدول والمجتمعات في تقدمها وتطورها تسحق آلاف الأفراد وحياتهم وكل هذا في سبيل أن يبقى المجموع وأن تستمر الحياة . يكفي مصري أنه استشهد في سبيل بلاده ، لا يهم بأي الأسماء استشهد. المهم أنه قدم دمه فداء لبلاده ، وأهله وناسه أما كيف قدمه ، فتلك مسألة ثانوية ، هل قدمه على أنه مصري أو على أنه ابن العمدة . لا تنس يا حضرة أن مصر كلها ساعتها كانت توصف بجملة واحدة : عندما يصير الكل في واحد . الكل في واحد ، هل فهمت معنى أن تذوب ملامح الأفراد وأن يصبح الكل واحداً . بودي أن يفهم أبناء الأجيال الحالية معاني الوطنية وأن يعرفوا معنى أن يصير الكل في واحد . عارضته في قفل التحقيق . ولم أتصور للحظة واحدة ، كيف يعتبر أن الأمر كأنه لم يكن . أنا رجل محقق والوصول للحقيقة عملي الوحيد وكمحقق تكون لي لحظات سعادة ولحظات غضب وأسباب الغضب والسعادة أمور تخصني وحدي . القضية التي كنت أحقق فيها لها طبيعة خاصة تدفع المحقق لأن يقطع قلبه من الجري وراءها . ولكني كلما اقتربت من الحقيقة ، أجدها تلاعبني لعبة الأستغماية ، كنا كمن يجري في متاهة . وإن كانت سعادتي تتمثل في الوصول إلى الحقيقة ، فإن التوهان عنها والعجز عن الإمساك بها ، يسبب لي كدراً غريباً وهما في ثقل الرصاص . ترى لماذا ألف وأدور وأنا أقترب من أخطر ما سأقوله في القسم الخاص بي من الرواية ؟ لأقل ما عندي إذن . والذي حدث أنني وأنا غارق

في القضية ـ سين وجيم وأوراق وتقارير ـ إذ بمسؤول كبير يطلبني . فرحت ، قلت أن القضية قد سمعت ، أي وصلت إلى أسماع من بيدهم الأمر والنهي . وهذا دليل أهميتها من ناحية ، وضمان حصول المظلوم على حقه والقصاص من الظالم من ناحية أخرى . تركت ما بيدي وذهبت إلى المسؤول الكبير . ركبت سيارة فاخرة ، ضغط السائق على زر بجواره فتحرك زجاج الأبواب صاعداً وهابطاً . وكان أمامي تليفون في بياض الحليب وكان جو السيارة الداخلي يوحي بأنه جو مختلف عن كل الأجواء الأخرى التي عشت فيها من قبل . سألت السائق عن السر في جو السيارة المعطر . ويبدو أنه لم يشأ أن يشغل بعناء الرد عليَّ وأشار بيده إلى جهاز صغير ومعقد موضوع في مقدمة السيارة . استفهمت منه مرة أخرى ، قال كلمتين فقط ، تاركاً مهمة الباقي عليّ :

ـ جهاز تكييف .

أدركت أن السيارة مكيفة الهواء . ساعدني الجو على الإسترخاء وبدأت أفكر في حكايتي مع القضية . كنت سعيداً . قلت أننا نعيش بالفعل في عصر ذهبي . ها هم كبار المسؤولين يهتمون بمثل هذه القضايا . وتلك أهم صفات الحاكم : أن يصل العدل إلى أقل الناس . إن الذي قال أن العدل أساس الملك ، والحاكم العادل هو الذي لا يغمض له جفن مهما حدث ، ما دام في رعيته شخص جائع أو عار بلا مأوى ، كان يدرك سر الفارق بين الحاكم الصالح وسواه من الحكام . . تذكرت كل هذا . فقلت . ما بالك بالقضية التي أحقق فيها اليوم ، أنها تهز الجبال ، فهي متصلة بالدم الذي سال دفاعاً عن بلدي ولم يجف بعد ، إن رائحة اختلاطه برمال الصحراء ما زالت تملأ الأنوف . وصلت إلى المسؤول الكبير . خيل إلي أن السيارة جزء متحرك من مكتبه ، أو أن مكتبه هو الجزء الثابت من السيارة . الجو المعطر والهواء الدافىء ، والألوان التي هي أقرب إلى ألوان الطيف . قابلني المسؤول الكبير مقابلة لا طعم لها . لم

أعرف أن كانت هذه هي طريقته في الترحيب بالناس أم أنه تعمد هذا معي . لم أتكلم . انتظرت حتى يسألني لكي أقول له أني أوشكت على الإنتهاء من التحقيق القانوني لم يبق أمامي حتى تكتمل القضية سوى اعتراف العمدة . وحتى هذا الإعتراف لم يعد هاماً . ما قاله الشهود يرقى إلى مستوى الإعتراف . تذكرت دفاع المتعهد وهو شريك العمدة في المسألة من أولها إلى آخرها ، والذي يكاد أن يكون اعترافاً كاملاً من شخص يعد من الناحية القانونية شريكاً من الدرجة الأولى . قررت أن أطلب من المسؤول الكبير عندما يعطيني الفرصة لكي أتكلم ، أن تكون المحاكمة سريعة وحاسمة وأن يصدر الحكم خلال عشرة أيام على الأكثر ، وذلك لإرتباط القضية بالدفاع عن الوطن . قام المسؤول الكبير من فوق مقعده . تحرك ، خرج من وراء مكتبه الفخم ، مشى . اقترب من إحدى النوافذ شد الستارة الت تغطي الزجاج . أعطاني ظهره وبدأ ينظر إلى ميدان صغير ، يطل عليه المكتب . كانت بواكير الشتاء تفاجىء الناس بلسعات برد لم يتعودوها بعد . ابتسم المسؤول الكبير . تحولت الإبتسامة إلى مشروع ضحكة على وجهه . قطعها واستدار ناحيتي وسألني بسرعة :

ـ متى تنتهي من الموضوع الذي تحقق فيه ؟

اعتدلت في جلستي ، تنحنحت ، بلعت ريقي ، وقبل أن أتكلم قال لي :

ـ هل تنوي أن تخطب ، تكلم . هل انتهيت من التحقيق أو لا ؟

قلت محاولاً تهدئة الموقف :

ـ هناك جزء أخير ناقص ، اعتراف الجاني أو الفاعل الأصلي في الجريمة وتلك المسألة سأنتهي منها اليوم أو غداً على الأكثر .

ـ وهل هناك صعوبة في أن يعترف اليوم ؟

ـ إنه يرفض الإعتراف رغم وجود شهود إثبات .

ـ وما قيمة اعترافه إذن ؟

ـ في المحاكمة السريعة التي أرجو أن تتم يصبح عدم الإعتراف عيباً في إجراءات التحقيق . وفي هذه الحالة قد يطلب القاضي إعادة التحقيق من جديد ، أو أن يحقق بنفسه . وهذا يميع المسألة .

تساءل المسؤول الكبير بدهشة :

ـ محاكمة ؟!

قلت ببساطة :

ـ طبعاً المفروض بعد تحقيق النيابة أن يحال الأمر للقضاء .

ـ أي أمر ؟!

ـ قضية الشهيد التي أحقق فيها .

ـ أي شهيد ؟!

ـ مصري ابن الخفير .

ـ أي خفير ؟!

ـ الذي ذهب إلى الجيش بدلاً من العمدة .

ـ أي عمدة ؟!

ـ عمدة البلد الذي يقولون عنه أنه رجل مسنود ولكن جريمته واضحة .

ـ أي وضوح ؟!

ـ وضوح أركان الجريمة ، الجاني ، والشهود والأدلة المادية والضحية . .

ـ أي ضحية ؟

ـ أقصد الضحايا .

ا تفع صوته أكثر هذه المرة :

ـ عم تتكلم يا حضرة .

قررت ألا أرد . بدا موقفنا أقرب إلى العبث . تساءلت بيني وبين نفسي : ماذا يقصد هذا المسؤول الكبير بالضبط ، وهل أرسل يستدعيني

أنا أم أنه كان يقصد شخصاً آخر بالإستدعاء ؟ تسلل إلى نفسي ضعف غريب . وبدا لي موقفي صعباً لدرجة لا توصف . فكرت أن أصيح ، أصرخ ، أجري ، أهجم عليه . ولكن منعتني ضخامة المكتب ، والإجراءات الأمنية التي تمت معي حتى أحضرتني وشخصيته المجهولة . في طريقي إليه سألتهم : أنا ذاهب لمقابلة من ؟ ردوا عليّ باختصار : مسؤول كبير . سألت من هو ؟ ومسؤول عن من أو عن أي القطاعات في بلادي ؟. رددوا نفس الإجابة : مسؤول كبير .

أشار بيده نحوي :

ـ اسمع .

لم أرد . أكمل هو :

ـ لا توجد قضية ولا غيره . الفلاحون في البلد ضحكوا عليك . لفقوا لك قصة محكمة مثل الروايات البوليسية . ابن الخفير ذهب إلى الجيش ولأنه يدرك وضاعة أصله ويريد أن يتمسح في الكبار أولاد الذوات أملى بياناته من اليوم الأول خطأ ، نسب نفسه إلى العمدة . قال أنه ابنه ، أبا عن جد . لهذا عندما استشهد تم هذا الإستشهاد بالاسم الذي ارتضاه لنفسه ، برغبته الكاملة . هذا كل ما حدث ولهذا سيقيد استشهاده بموجب هذا الاسم . ودفنه على هذا الأساس ، على أنه ابن العمدة . هل سمعتني ؟ لا توجد قضية . شاب استشهد . هذا كلام جميل . وله مكانه في الجنة . كونه قد أخطأ قبل استشهاده مدفوعاً ، بالطمع في اسم العائلة الكبيرة ، تلك ليست مشكلتنا أبداً . ثم من الذي أصدر لك الأمر بعمل هذا التحقيق ؟ ستقول لي أن هناك بلاغاً مقدماً من مواطن إلى البوليس . وإن البوليس أجرى التحقيق الإبتدائي ثم حول الأمر إلى النيابة لكي تحقق . هذا كله كلام سليم . من ناحية الإجراءات . ولكنك ارتكبت أكثر من خطأ جسيم . أولاً : عرفت منذ البداية أن القضية ليست مدنية ، فيها جانب عسكري يكاد يصل إلى ٩٠٪ منها ، بل أن القضية كلها عسكرية ،

وما دام جيشنا إحدى الجهات المستقلة لها شرطتها ومحققوها ومحاكمها . والأهم من كل هذا ، ألا تعرف أن لها قانونها الخاص . والذي يختلف عن قوانين الأحكام المدنية . ورغم هذا بدأت التحقيق على الفور ولم تقم بأي محاولة للإتصال بالجهات العسكرية المسؤولة : وهي قريبة منك ، وكانت ستتولى الأمر كله نيابة عنك . ثانياً : سأفترض أنك اندفعت في التحقيق بحسك الوطني وبحساسية وظيفتك: أمامك جريمة كما تتصور وتصر على هذا التصور . إذن لا بد من التحقيق فيها . هذا سليم . ولكن هل يجوز أن يكون التحقيق في كل القضايا علنياً ، تعرفه كل الأطراف المشتركة في القضية ؟ لا أعتقد . في هذه النقطة سأختلف معك على طول الخط . في بعض القضايا لا بد من سرية التحقيق . وقضية اليوم على رأس القضايا التي لا بد وأن تكون سرية . إن الحرب التي استشهد فيها مصري ما زالت قائمة حتى اللحظة التي نتكلم فيها الآن . لقد قبلنا وقف إطلاق النار . هذا صحيح ، ولكن لوقت محدد . لا بد من تحرير كل الأرض . وهذا معناه أننا ما زلنا في حالة حرب مع أعداء الوطن . أي أن البلاد كلها في حالة طوارىء . وكان يجب مراعاة سرية التحقيق . أنت تعلم أن كل بيت مصري ، ذهب أحد مراعاة سرية التحقيق . أنت تعلم أن كل بيت مصري ، ذهب أحد أبنائه إلى حرب التحرير . وأرجو أن تتصور موقف هذا البيت ، عندما تكون الحرب ما زالت دائرة ، وهم يرون جثة شهيد من شهداء الحرب تلف وتدور في البلاد ، ولا تجد من يدفنها بحجة أن هناك تحقيقاً يجري حول من صاحب هذه الجثة ومن يدفنها بحجة أن هناك تحقيقاً يجري حول من صاحب هذه الجثة ومن الذي سيصرف المستحقات المالية . إن سرية التحقيق مطلب وطني لا يقل عن الحرب نفسها . ثم من يضمن لنا أن تكون هذه الحرب هي الأخيرة هل تضمن هذا أنت ؟ أو أية جهة أخرى ؟ من المؤكد أننا سنحارب في الغد القريب وسنحارب في الغد البعيد . ولتحقيقك هذا أثره السيء ، إن قامت حرب

أخرى جديدة . وهل تتصور تأثير القضية لو علم بها الناس ، والرأي العام داخل البلاد وخارجها . أنهـا ستلقي بظلال غـريبة على حـربنا وانتصـارنا وأبطالنا ولمصلحة من هذا ؟ لمصلحة الخفير وابنه . لقد كان مطلوبـاً من كل مصري أن يضحي . وقد ضحى الخفير بابنه فشكراً له . لقد فكرنا في الأمـر طويـلاً ، وكان هنـاك اتجاه قـوي إلى معاقبتـك على هذه الأخـطاء القاتلة . ولكن وقفت ضد هذا الإتجاه ، لسبب بسيط وهو أني متأكـد من حسن نواياك ، وأنك لم ترتكب أياً من هذه الأخطاء بسوء نية مسبق .

إليك قراري :

ـ أعتبار التحقيق كأنه لم يكن وقفل المحضر واحضار أوراق التحقيق إلى هنا . وقد أعطيت تعليماتي لكل الجهات بعمل اللازم .

رفع يده بحركة مسرحية ، وصاح قائلاً :

ـ الآن انتهت المقابلة .

امتـدت أياد خفيـة منا لخـارج فتحت الباب ، أشـار المسؤول بيده نـاحية البـاب فهمت أنه يـطلب مني الخروج . خـرجت وأنا أرتجف من الإضطارب . ذهبت إلى مكتبي فوراً . وهناك وجدت الأوامر الصارمة من المسؤول الكبيـر الغامض ، المـلامح والاسم والـوظيفـة والشخصيـة قـد سبقتني بوقت طويل . ويبدو أن الرسول الذي طلبني كان هو نفسه الـذي حمل التعليمات النهائية . وبناء عليها وجـدت أن المأمـور صرف الجنـاة والضحايا والشهور وأفرج عن ابن العمدة . كل ما وجدته في انتظاري كان أوراق ومستندات التحقيق ، لأنني كنت قد وضعتها في مكان أمين أغلقته جيداً ، جمعت الأوراق قررت التحفظ عليها بمعرفتي لحين مقابلة رؤسائي لعـرض الأمر عليهم ومعـرفـة مـا يجب عمله . من نـاحيتي كـان مـوقفي المبدئي ، أنه لا بد من المضي في التحقيق إلى نهايتـه الطبيعيـة ، مهما كانت الظروف . المسألة أنه بين يدي قضية كاملة الأركان ، كان يجب . ولكن المشكلة تكمن في كلمة يجب هذه . من منا يملك حق استخدامها

ضمن مفردات لغته اليومية ، لست من الذين لهم الحق في استخدام كلمة يجب . لم أقدم أوراق انتسابي لحزب يجب في مصر . ويبدو أن شروط العضوية لا تنطبق عليّ . قبل أن أترك مكتبي متجهاً إلى منزلي ، مؤجلاً مقابلة رؤسائي إلى الغد ، أخذت أوراق القضية ، وضعتها في حقيبتي . قررت أخذها معي إينما ذهبت ، فجأة ، دخل عليّ والد الشهيد الحقيقي ، أقصد الخفير . كان شخصاً آخر ، تبدل خلال هذا الوقت . تكلم ، قال أنه يعلم أننا لن نستطيع فعل أي شيء للعمدة . قلت له ، أن ذلك غير صحيح وأن العدالة ستأخذ مجراها ولا يوجد أحد في بلادنا كلها الآن فوق المسألة القانونية . سخرت من نفسي عندما أدركت أن الواقف أمامي لن يفهم هذه الكلمات إطلاقاً . حاولت تخفيف حدة الموقف . سألته عمن قال له ، إننا سنعجز عن إتخاذ إجراء ضد العمدة . قال إن من قال له الكلام ليس شخصاً معيناً . كل الناس أكدوا له هذه الحقيقة . ولهذا حضر إلي مخالفاً بذلك تعليمات السيد المأمور ، الذي نبه عليهم بعدم مغادرة بلدهم لأي سبب وعدم الحضور إلى المركز . قدم الخفير إليّ ليطلب طلبين ، لن يطلب غيرهما : أولهما أنه بصفته والد الشهيد الحقيقي يطلب تسليمه جثة ابنه يدفنها بنفسه وفي مكان يعرفه حتى يستطيع القيام بالواجب نحو ذكرى الشهيد مستقبلاً . والثاني أنه يطلب الحقوق المالية والتي ستصرف لابنه . وأكثر من هذا لن يطلب أية مطالب ويكفيه هذا . اقتنعت بمطالب الرجل ، وكان المفروض أن أصدر تعليمات بذلك ، ولكني آثرت التفاهم مع المأمور وباقي المسؤولين . ذهبت إلى المأمور ، وبمجرد أن كلمته في ذلك الموضوع بان الغضب على وجهه . لم يعجبه مجرد اهتمامي بأمر انتهينا منه . وبعد أن استمع لكلامي بنفاد صبر قال لي : أنه كان يتصور إنّا انتهينا من تلك الحكاية الغريبة التي أفسدت عليه شخصياً تذوق طعم حلاوة النصر . تحدث عن الجثة . قال أنه صحيح قانوناً وشرعاً ، إن تسلم جثة الشهيد إلى أهله . ولكننا في حالة فريدة ،

تجعل نص القانون غير واجب التنفيذ . لمن تسلم الجثة ؟ إن سلمناها للعمدة وقف الخفير أمامنا ، ومعه أدلة على أن الشهيد ابنه ، لن يقف الخفير بمفرده ، قد يتحرك معه أهل البلد . وفي هذه الحالة لا أضمن السيطرة على الأمور بسهولة . وأن سلمنا الشهيد للخفير فلا بد من إتخاذ إجراءات ضد العمدة وابنه . وهو يعيدنا إلى القضية التي صدرت تعليمات واضحة وصريحة بالإنتهاء منها واعتبارها كأنها لم تكن . إذن الحل السليم هو تأجيل تسليم الجثة ، لأي من الطرفين في الوقت الحالي . على الأقل إلى أن تهدأ الأمور وتمضي فترة زمنية ينسى الناس خلالها ما حدث . ثم تسلم الجثة ، لمن يتضح لنا أنه صاحبها الفعلي . وإلى أن يحدث هذا ، الجثة في عهدتنا . دفناها في مكان أمين أعرفه أنا شخصياً . وهي في الحفظ والصون صدقني أن نقل الجثة لن يجلب لنا سوى المتاعب التي قد تصل أخطارها إلى الإحاطة بنا . لا أستطيع الذهاب إلى البلد ومعي الجثة ، لا أحد يعرف ما قد ينتج عن هذا . يبقى الطلب الثاني سأتصل بالمسؤولين لمعرفة طريقة التصرف فيه . رفع سماعة التليفون الأميري الموضوع بجواره ولكي لا أسمع طلب همساً ايصاله بسكرتارية أحد المسؤولين . بعد قليل بدأ كلامه بالإعتذار ، وقال إن هذا آخر استفسار في تلك المسألة . سأله الصوت من الناحية الأخرى ، أية مسألة ؟ قال أنها حكاية إدعاء خفير كذباً استشهاد ابنه بدلاً من ابن العمدة . فتحت فمي لاصحح الأمر . أشار بيده أن أسكت . مرت فترة صمت كان يسمع فيها كلمات كثيرة وعد بعدها المتحدث أن هذا هو السؤال الأخير . سمع التعليقات الأخيرة . وضع سماعة التليفون وجفف حبات العرق فوق جبينه . قال أنه سأل الجهات العليا وقد استغربوا لمجرد السؤال والبحث والتحري . إذا كنا قد اعتبرنا التحقيق كأنه لم يكن ، تصرف المستحقات لوالد الشهيد في أوراق الحكومة وهو العمدة ، ولا يصرف للخفير مليم واحد إلا بموافقة العمدة . وحتى في هذه الحالة، تصرف للعمدة وهو

الذي يعطيها للخفير ، أو يقوم بعمل توكيل رسمي للخفير فيصرفها نيابة عنه . حاولت مناقشته . قمنا بالإتصال بالعمدة . سألناه عن مصير المرتب والمكافأة . هل يتنازل عن بعضها للخفير . دهشت عندما رفض العمدة ذلك قال أنها مبالغ تافهة وتعد ملاليم بالنسبة لثروته ولكنه لن يتنازل عنها . لأنه لن يستدرج إلى الفخ الذي نعده له . تنازله معناه أنه ارتكب بالفعل جريمة تزوير . والتنازل يتساوى مع الاعتراف الذي هو سيد الأدلة ضده ولكنه يعدنا أنه بعد حصوله على الأموال . . قد يعطي الخفير صدقة أو مساعدة . وهو لن يعطيه وحده ، حتى لا يفسر هذا لموقف ضده . سيعطي الفقراء والمحتاجين من حر ماله ، وليس من أموال الشهيد ولن يقبل مناقشة أكثر من هذا . استأذنت من المأمور لابلغ الخفير بهذا . طلب مني المأمور البقاء . استدعى الخفير الذي حياه وعامله على أنه أهم رجل في العالم . أبلغه بتعليمات محددة ، وبلغة مدببة قراراته ، سيؤجل تسليم الجثة وهي أمانة عند المأمور شخصياً ، بعض الوقت . أما الأموال ، اتفقنا مع العمدة أن يراعي ضميره فيها . والعمدة لن يتركه يخرج من المولد بدون حمص . عليه فقط الذهاب إليه . العمدة رجل ابن ناس ومن أصول بعيدة ولن يظلمه .

رفع الخفير السابق يده بالتحية التي لم ينسها . وخبط الأرض بقدمه وقال تعليمات ممطوطة :

ـ أوامر سعادة البيك المأمور تنفذ .

انسحب الخفير من المكتب الواسع بظهره . اصطدم في تقهقره ببارفان كاد أن يقع على الأرض . ولكنه استدار بسرعة وأمسك به قبل أن يقع وخرج . عند ذهابي إلى حجرتي كان الخفير ينتظرني على بابها . حلفني أن أطمئنه على جثة ابنه . طمأنته أكدت له أنه سيتسلمها بعد أن تهدأ الأمور . قلت هذا ، رغم أني أنا نفسي لا أعرف مكانها في مقابر مصر كلها . وعندما أبدى مخاوفه من أن العمدة لن يعطيه مليماً واحداً .

وقفت خلف مكتبي . وخرج من حلقي صوت غريب عليّ ، صوت الأيام التي مضت ، ولن تعود قبل أن ينكسر ما بداخلي . قلت ببطء ، أن العمدة سيعطيه كل ما سيأخذه وإن لم يعطه فأنا موجود ، وأنا قادر على ارغام العمدة . دعا لي الرجل من قلبه وكان صادقاً . سعدت لأني أسعدته ، رغم ايماني الكامل بعجزي عن تنفيذ ما وعدت به . حياني الرجل وانصرف . وإن كان اطمئنانه يبدو كطلاء خارجي لبيت متهدم . جلست أسأل نفسي : الست مشتركاً فيما حدث كله ؟ بل أني أعد فاعلاً أصلياً ؟ كان يجب عليّ إصدار قراراتي منفصلاً عن الجميع وكان يجب عزل هذه الحادثة عن الحاصل في بلادنا الآن . عدت من جديد إلى كلمة يجب . ونسيت أني لست من الذين لهم حق استعمالها وحتى لو أصدرت تعليماتي : هل كانت ستنفذ ؟ أشك في هذا ولكن مجرد صدورها كان سيحمل إليّ قدراً من الراحة الداخلية واحترامي لنفسي في الأيام القادمة .

في الطريق إلى منزلي كنت هادئاً ، على الأقل بقيت معي أوراق التحقيق ووثائقه ومستنداه ، سأحتفظ بها معي . لن أتركها مهما كانت الظروف في المستقبل . سيرى الهادىء وصمت آخر الليل ذكرني بسعادتي الليلية عندما كنت أنتهي من قضية ما في كل مرة ، كنت أهمس لنفسي في صمت الشوارع المهجورة ، مردداً كلمة أمي التي كانت تقولها في الطفولة البعيدة :

ـ توتة . . توتة . . وانتهت الحدوتة .

حاولت أن أهمس بذلك لنفسي قلت :

ـ توتة . . توتة . .

ثم توقفت . رددت الكلمتين توتة ، توتة . توقفت من جديد وسألت نفسي :

ـ ولكن هل انتهت الحدوتة ؟

وما دام الذي وجهته لنفسي سؤالاً ، فمن حقه أن تكون له إجابة

شـافية ووافيـة وقاطعـة ومقنعة ولأنـه ليس بداخلي تلك الإجـابة في هـذه اللحظات ، فسأبدأ من الآن رحلة بحث عن الإجابة وإن عجزت ، سأخرج السؤال من صدري ، وأطلقه يلف في ربـوع بر مصـر ، باحثـاً لنفسه عن الإجابة ، وبعد أن يبدأ السؤال رحلته ، سألاحقـه بسؤال آخر : تـرى هل يجد الإجابة ؟!

مؤلفات يوسف القعيد

● أولاً الأعمال القصصية :

١ ـ طرح البحر .
٢ ـ تجفيف الدموع .
٣ ـ في الأسبوع سبعة أيام .
٤ ـ الضحك لم يعد ممكناً .
٥ ـ حكايات الزمن الجريح .
٦ ـ هموم عائلية .
٧ ـ من يخاف كمب ديفيد ؟
٨ ـ أيام الجفاف .
٩ ـ قصص من بلاد الفقراء .

● ثانياً الأعمال الروائية :

١ ـ الحداد ـ ثلاث طبعات .
٢ ـ أخبار عزبة المنيسي ـ طبعتان .
٣ ـ البيات الشتوي ـ طبعتان .
٤ ـ يحدث في مصر الآن ـ أربع طبعات .
٥ ـ ثلاثية شكاوي المصري الفصيح .